7

الملالي والكهرباء

المشاهد الطبيعية في إيران مشاهد عظيمة، لكنها مليئة بالأعمدة الكهربائية التي تنبت كالأشواك في كل مكان وحتى في قلب الصحراء المقفرة، ويمر المرء بشكل متكرر بصفوف من الأعمدة، من خشب أو إسمنت تمتد حتى الأفق، ولا يعرف النقطة التي بدأت منها ولا النقطة التي ستنتهي عندها، وتمتد الأعمدة أحيانا على طرف الطريق وتكثر في الساحات، وأحيانا تراها معزولة لا يجاورها شيء، وإذا ما دفعك الفضول لمتابعة هذه الأعمدة فقد تسير عشرة أو عشرين كيلومترا في أرض معزولة تماما قبل أن تقع عيناك على مزرعة أو ما هو أقل من ذلك، خمس أو ست خرائب من الطين والقش تسرح أمامها بعض الخرفان وبضعة دجاجات.

وقد تجد من وقت لآخر كلبا متمددا فوق سقف شرفة، وقد فتح عينيه عند اقتراب زائرين، ويحمل العمود الأخير قاعدة مصباح مضاء ليل نهار. وعندما يهبط المساء، تتسرب أنوار خافتة من شقوق الأبواب والنوافذ، وربما يصلك نور أزرق منبعث من جهاز تلفزيون. ويشعر المرء أنه فعلا في آخر العالم، لكن آخر العالم هذا ينعم بالكهرباء بفضل الجمهورية الإسلامية. وفي مثل هذه الأماكن تقدم الكهرباء مجانا، لأنه لا يتصور أن يأتي محصل ما إلى هذه البقاع المعزولة كي يراقب العدادات.

وقد شهدت بداية الثورة قفزة حقيقية لإيصال التعليم والرفاه إلى الجماهيرالمحرومة، ومازالت هذه القفزة بادية للعيان، فكل الأطفال، أو تقريبا كلهم، يتلقون على الأقل المراحل الأولى من التعليم. كما يستفيد القسم الأكبر من الأحياء ومعظم القرى البعيدة من مستوصف مجاني يشرح فيه اختصاصيون وبشكل خاص للأزواج الجدد مبادىء الحياة الجنسية وموضوع الحد من النسل.

وقد أهمل الملالي لفترة من الوقت موضوع الإنجاب، لكنهم أدركوا أن البلاد لن تستطيع إلى ما لا نهاية تحمل نسب الإنجاب الطبيعي التي فرضت نفسها في غياب سياسة طوعية. ويشكل الشباب اليوم ذكورا وإناثا، الجيل الأخير من الإنجاب الكثيف الذي مارسه الآباء والأمهات: وذلك قبل أن يبدأ انهيار هرم الأعمار.

وتدور نسبة الإخصاب الفعلية عند النساء الإيرانيات الآن حول طفلين اثنين، وهي تشبه نسبة الإنجاب المرتفعة في الغرب، ويرى المجتمع في هذه النسبة علامة على الحداثة، وينظر إليها بشيء من الفخر، ويشير ملالي إيران إلى أن الإسلام لا يمنع الإنجاب بلا حدود، ومقابل ذلك توزع حبوب منع الحمل على النساء الشابات مجانا في الأرياف، أما الواقي الذكري فتراه معروضا في الصيدليات وبماركات مختلفة، أمام صناديق الدفع، كما تعرض علب العلك في المحلات الكبرى ذات الخدمة الذاتية.

ومنذ وقت قريب جدا أدمجت وزارة الجهاد بوزارة الزراعة وأصبح اسم الوزارة الجديدة، وزارة الجهاد الزراعي.. إذاً لم يعد شأن هذه الوزارة متعلقا بشن الحروب على الكفار، حروب ابن لادن، بل يتعلق

بالحرب على التخلف في الميدان الريفي. وما يثير الفضول حقا، إن كلمة الجهاد تترجم في وكالات الأنباء الغربية بمفردة «الصليبية»، وهي كلمة لا تخلو من معنى خاص في أرض الإسلام، وقد أدت هذه الحرب «الصليبية» في الداخل إلى نتائج إيجابية، فعندما نتساءل عن حال الناس في القرى يجيب الكهول أن حياتهم هي على الأقل مرضية، وهذا تصريح يندر أن نسمع مثله في القسم الأعظم من أرياف العالم، أما الشباب فيشكون من الملل والبطالة لكنهم بوجه عام لم يعودوا يواجهون الفقر المذل.

ونفس الأمر في المدن الكبرى ، لاشيء يشبه مدن الصفيح في أمريكا اللاتينية، ولا شيء يشبه أحياء الغيتو في ضواحينا، ومع ذلك، لدى إيران مهاجرون غير مرغوب فيهم، يصل عددهم إلى مليون ملاجىء أفغاني بالإضافة إلى ست مئة ألف عراقي من حرب الخليج الأولى، وقد جاء وقت كانت فيه إيران البلد الأول في العالم في استقبال اللاجئين، وقد تم تقريبا دمج كل هؤلاء، لكن ليس بدون مشاكل وأضرار، وليس بدون احتكاك، و مع محاولات دائمة دون توقف لترحيلهم إلى مخيمات ومناطق محمية.

وعندما تجولت في بداية إقامتي في الزوايا الشعبية في طهران، فوجئت كما فوجئت زوجتي بأنها لا تختلف جوهريا عن الأحياء الأخرى في المدينة. لكن الأبنية هنا أكثر تواضعا، والكثافة السكانية أكثر ارتفاعا، وكذلك التلوث البيئي، طالما أن هذا التجمع السكاني يمتد على منحدر طويل في سفوح جبال البورز، وهناك ما يزيد عن سبع مئة متر تفاوت في الارتفاع بين المنطقة العليا والمنطقة السفلى في طهران. وهكذا تتركز الأحياء الفقيرة في المنطقة السفلى، في جنوب طهران، وبالقرب من المنطقة الصناعية.

وأخيرا، لدى كل فرد في إيران، أو تقريبا كل فرد، سقف يحميه، ولديه في الداخل ما يمنحه الدفء في الشتاء. وهناك بالتأكيد عدد قليل جداً من الناس ليس لديهم سكن ثابت، كما في باريس. والشوارع نظيفة، وتكنس بشكل جيد، وتجمع القمامة بشكل منتظم في جنوب المدينة وشمالها وقد بذل النظام الإيراني جهداً كبيراً لنشر المساحات الخضراء في كل مكان تقريبا، واستنادا إلى كل هذا يجب الإقرار أن النظام الإسلامي عمل وبشكل جيد لإدارة الهجرة الداخلية، هجرة سكان الريف إلى المدن، هذه الهجرة التي بدأت زمن الشاه ولكنها تسارعت منذ ذلك الحين. ولم يحاول النظام أن يوقف بشكل سلطوي الحركة نحو المدن كما فعل الاتحاد السوفييتي مثلا حيث استخدم جوازات سفر داخلية، وكان ما فعله الإيرانيون هو محاولة توجيه هذه الحركة عن طريق تقديم ميزات اجتماعية لتحويل هجرة الأرياف نحو البلدات والمدن الصغيرة، ولكن النجاح كان متواضعا.

وبينما كانت غالبية الشعب الإيراني قبل ثلاثين عاما ذات طبيعة فلاحية، فإن غالبية المجتمع الآن أصبحت مدينية، والفشل الذريع للثورة الإسلامية سواء في المدينة او الريف هو البطالة بين الشباب، وهو موضوع سأتناوله فيما بعد.

ولنقدم مثالا آخر، فقد نجح النظام في تطوير الجامعات، التي تضم حاليا مليوني طالب، ويتوزع غالبية الطلبة بين الجامعات الحكومية والجامعات الخاصة، والتنافس بين الطلبة شديد للوصول إلى الكليات الأفضل، وفي القطاع العام، تجري مسابقات على المستوى القومي ويتم وفق نتائجها توزيع الطلبة على الكليات، وبهذا الشكل يمكن لطالب من

طهران أن يجد نفسه في جامعة محافظة أخرى، ولكن معظم الطلاب المتألقين من المحافظات قد يكون نصيبهم في جامعة طهران وهذا ما يسهل ضمهم إلى النظام.

وبالطبع، تفتقر الجامعات العامة للتجهيزات، وهي في نفس الوقت مزدحمة بالطلاب فوق طاقتها، ولهذا السبب تتصف برامجها بتعليم المواد النظرية صعبة الفهم والتي لا تنمي القدرة على الحوار والإبداع. لذلك يكتسب هؤلاء الطلبة القليل جدا من الخبرة العملية، أو لا يكتسبونها على الإطلاق، بسبب النظريات التي أشبعوا بها، وهذه الظاهرة منتشرة في كثير من الجامعات، وعلى الطلبة أن يصارعوا بقوة لاختراق هذا الوضع وأن يمتلكوا دوافع قوية لذلك. وإذا ما حافظوا على هذا الاندفاع،بعد انتقالهم إلى الحياة العملية فإنهم يصنعون من أنفسهم أطباء ومهندسين ومعماريين وفنانين محترمين إن لم نقل ممتازين، وأما ما يتعلق بدراساتهم العليا، فيسافر معظمهم غالبا إلى الخارج كي يكملوا تكوينهم العلمي وأينما حلوا فهم ينالون احترام الجميع.

وفيما يتعلق بإدارة الداخل فقد طبعت الجمهورية الإسلامية البلاد بطابعها، وما هو غريب حقا أن هذا الطابع اتسم بالتفكير في البداية بإقتداء النمط الأمريكي، المنتشر في كل مكان في الولايات المتحدة، فقد فضلت الثورة ما هو فردي على ما هو جماعي، ففي الوسط المديني كان للسيارة مرتبة متقدمة على المترو، وفي الوصول إلى الريف كان لطريق السيارات أو السفر الجوي الأفضلية على سكة الحديد، وأما نقل البضائع فقد كان لسيارات الشحن التفوق على القطارات.

وكانت النتيجة نصف مرضية، فالكثافة السكانية في طهران بملايينها الاثني عشر ظهرت وكأنها نموذج بائس من لوس انجيلوس، لقد اهتموا بالطرق السريعة وبطرق السيارات لبناء شبكة مدينية تتصف بفيضان من السيارات المتجهة في الصباح جنوبا إلى أماكن العمل، وطوفان آخر في نهاية النهار متجه إلى الشمال نحو أماكن السكنى، وفي هاتين الفترتين يحدث تقريبا وبشكل دائم الاختناق المروري الكبير.

كم مرة احتجنا لساعة كاملة أو أكثر لتلبية دعوة ما؟ وعندما تقع «الجلطة المرورية» قد تمر أحيانا ساعة ونصف لا تقطع بنا السيارة فيها أكثر من نصف الطريق، لذلك نختار أن نعود أدراجنا ونتصل بمضيفنا كي نعتذر له عن تلبية الدعوة، ومن المفيد التوضيح في هذه البلاد أن ألفي سيارة جديدة تسجل كل يوم في إيران نصفها لسكان طهران فقط.

حتى كبار المسؤولين في النظام يقعون أيضاً في مصيدة اختناقات المرور هذه، لأنه عندما تتجاوز الكثافة حدا معينا تعجز حتى دوريات شرطة المرور من راكبي الدراجات النارية عن فتح الطريق، وفي إحدى المرات كنت أرافق زائرا أجنبيا هاما لمقابلة رئيس الجمهورية، فحشرنا في أزمة مرورية حادة، ووصلنا إلى قصر الرئاسة متأخرين ساعة كاملة عن موعدنا. ويبدو أن هذا الأمر لم يثر أحدا من الإيرانيين. وأعتقد أن رئيس الجمهورية نفسه قد عانى في ذلك اليوم مثلنا من نفس الفوضى إذ كان عائدا من إحدى المحافظات.

بالتأكيد تملك طهران شبكة سيارات نقل كبيرة لها ممرات خاصة بها وفي حالة جيدة قد تسبق حتى باريس.ولكنها مع ذلك لا تكفي، ويشعر

المرء بالمعاناة وهو يرى الصفوف الطويلة أمام مواقف هذه السيارات في ساعات معينة من النهار، ثم تكوم الناس داخلها: الرجال في الأمام والنساء في الخلف وبشكل ملزم للجميع، ولكن ولان الممرات المخصصة للسيارات الكبيرة المذكورة آنفا لا توجد في كل مكان، فهي تعاني أيضا من الاختناق المروري.

ولا بد من كلمة عن سيارات الأجرة العامة، لقد أدت الحاجة الماسة لها إلى ازدهار عمل السيارات غير النظامية الموضوعة في الخدمة العامة. وتكفي إشارة واحدة عند تقاطعات الطرق السريعة وفي أي مكان آخر عند المحاور الكبرى، أو حتى ببساطة الوقوف وقفة انتظار لدفع السائق إلى التوقف، بعد أن يكون قد حمل في سيارته عددا من الأشخاص، فتخبره عن المكان الذي ترغب الوصول إليه، فينقلك إن كان يتوافق مع الجهة التي يقصدها هو بركابه، ويعيق توقف السيارات المتواصل التي تنقل أثناء الطريق خمسة أو ستة ركاب مضغوطين إلى بعضهم البعض، تدفق حركة السير فعلا.

هناك أخيرا المترو، أو ظل مترو، لأنه لا يعمل إلا على خطين فقط. الأول شمال ـ جنوب، والثاني شرق ـ غرب. ولا ينقل هذان الخطان أكثر من ألف وخمس مئة مسافر في اليوم، بينما يستطيع المترو الذي يستحق هذا الاسم في عاصمة كطهران نقل خمسة او ستة أضعاف هذا العدد. وقد تم تقريبا إنجاز خط شرق ـ غرب، أما خط شمال ـ جنوب فيفترض أن يكون قد وصل هذه الأيام إلى أقصى جنوب المدينة حيث يقع ضريح الإمام الخميني، ولكن مازال عليهم إنجاز القسم الأصعب، ولا يعرفون متى يمكنهم الوصول إلى أقصى نقطة في الشمال على سفح الجبل، الذي

يصبح في هذا الجزء شديد الانحدار، وتحل الصخور محل الرسوبيات في الطبقة السفلى من التربة.، هذا ما استطاعت الثورة إنجازه خلال ربع قرن بينما كان لديها الفرصة للقيام بعمل كبير سيبدل حياة سكان العاصمة لتأكيد صدقية دعوتها الجماهيرية. ولربما كان صحيحا أن الثورة وجدت في مترو طهران (كما وجدت في المحطات النووية التي سنتكلم عنها فيما بعد) أحد المشاريع الجنونية جدا للشاه، ومن هنا نستنتج أن التباطؤ الذي مارسه النظام في تنفيذ المشروع لم يكن بلا سبب.

وقد تحدثنا عن الازدحام في الطرق العادية والطرق السريعة، ولكن ماذا نقول عن النقل الجوي؟ لم يصل عدد المقاعد التي تقدمها الطائرات إلى الحجم المطلوب، رغم أن معظم الطائرات تطير بكامل استيعابها. ولم تحقق شركة الطيران الوطنية Iran Air التي تستثمر هذه الطائرات الأرباح المرجوة، لأن ثمن البطاقة محدد بسقف معقول أدنى من تكلفتها.

وتسعى شركة الطيران الوطنية أن تقدم لركابها أفضل خدمات ممكنة إنما يحول دون ذلك عدم تمكنها من تطوير وتحديث أسطولها الجوي بسبب الحصار الأمريكي المفروض على كل أشكال التعامل التجاري مع إيران في أعقاب أزمة الرهائن، أي منذ ربع قرن. وليس هناك من وسيلة لشراء طائرات من الغرب عمرها أقل من سبع سنوات،لا من بوينغ ولا حتى من أيرباص؛ لأن الشركات الأوروبية تحافظ على مصالحها الكبرى مع الولايات المتحدة، ولا تستطيع أن تغضب زبونها الرئيسي عبر الأطلسي. حتى الطائرات المستعملة، يخشى الكثير من البائعين المحتملين سخط الولايات المتحدة، ويفضلون تجنب المخاطر، وبالتالي فهم يحجمون عن بيع أي طائرة لإيران.

لماذا هذه الخيارات الإيرانية ولماذا هذه المعوقات؟

بالنسبة للخيارات الأساسية، يجب أن نتذكر أن أفضل الطلبة الثوريين من مهندسين ومهندسي عمارة ومهندسي مدن، كانوا في الحقيقة يدرسون على نفقة الشاه في الولايات المتحدة، ولكنهم وجهوا له الإهانات عبر أسوار البيت الأبيض عندما قام بزيارة للولايات المتحدة تلبية لدعوة من الرئيس جيمي كارتر، حتى أنهم قذفوه بالغاز المسيل للدموع. وعلى كل حال عاد هؤلاء الطلبة إلى إيران يحملون معهم رصيدا ثقافيا وتكنولوجيا صنع في الولايات المتحدة، واندفعوا لبناء وطنهم، وترى الناس اليوم آثار جهودهم هذه.

أما ما يتعلق بالمعوقات في طريق إنجاز المشاريع فالأسباب متعددة فهناك أولا، وهذا ما ذكرته سابقا، العقوبات الأمريكية، ففي كل قطاع استراتيجي نجد عقودا لم تكتمل وأجهزة أو أقساما من أجهزة منع بيعها فعليا إلى إيران، ونحن ملزمون بالاعتراف أن هذه العقوبات أوقفت حركة التطوير الاقتصادي والتقدم التكنولوجي، لقد كانت ذات فاعلية كبيرة وبشكل مخيف ضد تحقيق الرفاه للناس، ناهيك عن محاولة إسقاط النظام نفسه.

وهناك أيضا الحرب ضد العراق والتي امتصت خلال ثماني سنوات قسما كبيرا من ثروات وطاقات البلاد من أجل حرب مفروضة كما يطلق عليها الإيرانيون، ولكنها حرب أطالوها هم أكثر من ست سنوات دون فائدة، و انتهت عام 1988 ليقف كل طرف عند حدوده، وكان صدام راضيا عام 1982 بنتيجة كهذه بسبب الموقف الصعب الذي كان يمر به.

وهناك أيضاً فيما يتعلق بهذا التأخير في إنجاز المشاريع، سبب أقل وضوحا وهو الجمود الكامل في الجهاز المصرفي الإيراني، والذي جرى تأميمه مع الثورة، فقد عجز عن تعبئة المصادر اللازمة لتمويل المشاريع الكبرى لصالح البلاد وعلى المدى الطويل، ولهذا تمول المشاريع بواسطة دفعات مفاجئة عن طريق تحرير بنود الميزانية، كل هذه الأسباب جعلتنا نرى على طول الطرق، وفي قلب طهران كثيراً من المشاريع غير المنجزة.

عندما زرت الأعمال الأولى من إنشاء المترو في أصفهان، قال لي رئيس المشروع بكل بساطة، إنه يظن أن عشرين عاما ستمر قبل انتهاء الخط الأول، وفي كل طهران يمكن للمرء أن يشاهد ومنذ سنوات أعلى برج للتلفاز بارتفاع مئتين أو ثلاث مئة متر شبيها ببرج برلين الشرقية نمطا من المطعم الدوار، وكان يفترض أن يضم البرج في طوابقه السفلى فندقا ضخما ويجثم في قمته هذا النمط من المطعم الدوار، ويثير هذا المبنى منذ ثلاثين عاما دهشة السواح، فالإسمنت قد صب، وكل ما هو أساسي للبرج موجود ولكن لا شيء يعمل منذ 2005، وما زالت الورشة متوقفة عن العمل منذ أربع سنوات، مدة إقامتي في طهران.

ونرى الشيء نفسه في ورشة بناء مسجد طهران الكبير المخصص لاستقبال المصلين في صلاة الجمعة، التي تجري مؤقتا ومنذ خمس وعشرين سنة في الحرم المركزي لجامعة طهران، ويمكن رؤية مآذن المسجد الأربعة الضخمة لكنها ما زالت على الهيكل الإسمنتي تحيط بها رافعات ضخمة ساكنة بلا حراك على جانب الطريق السريع الذي يخترق المدينة من الشمال إلى الجنوب.

وتتكرر الحالة نفسها في مطار الإمام الخميني الدولي والذي بدء بإنشائه منذ عشرين عاما، وبعد رقاد لورشات العمل استمر عشرين عاما فقد دشن المطار عام 2004، وقد وضع في العمل فعلا لكن ليوم واحد فقط، حيث أقلعت منه طائرة يتيمة ثم منعت الطائرة الثانية من الهبوط من قبل الباسدران، الذين لم ترضهم حصتهم من استثمار هذا المطار. وكما هي الحال في كثير من المشاريع في إيران، فقد افتتح المطار جزئيا في نهاية 2005، ليحل بالتدريج محل المطار القديم في مهراباد الذي أخذ يحاصره التوسع العمراني لمدينة طهران في السنوات الثلاثين الأخيرة. ومع ذلك فلم يرض هذا الانتقال إلى المطار الجديد سكان العاصمة الذين أصبح عليهم أن يقطعوا خمسا وثلاثين كيلو مترا في الصحراء لأخذ الطائرة، بينما كانوا يأخذونها من المطار القديم في مركز المدينة.

ولحسن الحظ، ومن دواعي العزاء أن الإيرانيين يملكون جزيرة كيش. لقد بدأ الشاه على تحسين هذه الجزيرة الصغيرة الواقعة على الخليج العربي كي يجعل منها ناديا للقمار ومكانا لملذات سلاطين المنطقة وما وراءها، وكانت الكونكورد منذ بداية تحليقها قادرة على الهبوط في مطار هذه الجزيرة، وقد أغلق الكازينو الآن ولكن الملالي قد حافظوا أخيرا على وضع الجزيرة باعتبارها منطقة حرة وحولوها إلى منتجع سياحي حيث يستطيع الإيرانيون وبساعة واحدة من القدوم إليها للاسترخاء في فنادق متواضعة، وفنادق فخمة، وفنادق فائقة الفخامة، ويقوموا بمشتريات معفاة من الضرائب.

وتشبه المراكز التجارية في الجزيرة المحلات التجارية في المطارات الكبرى، فيما عدا الكحول بالطبع، وحتى في كيش على النساء أن يغطين

شعورهن، ولا حاجة للتذكير أنه لا يسمح للرجال والنساء الاستمتاع بالاختلاط على الشواطىء ذات الرمل الناعم والمحيطة بالجزيرة، وأهمية هذه التفاصيل أنها وحدها التي تذكرك بأنك في إيران، أما كل شيء آخر فأنت بالتأكيد في بلاد أخرى.

ولنكمل حديثنا عن حركة المرور الفوضوية وسيارات القمامة، كل السيارات مصانة بلا عيوب، وتسير بسرعة لا تتجاوز الخمسين كيلو مترا في الساعة، حتى في الشوارع الخالية، وفي الطريق تشاهد فوارغ بلاستيك متروكة للريح، وأنقاضا، ومتروكات، إنما كل شيء أبيض ونظيف ولامع بما فيه المكاتب الحكومية. وهنا، رجال شرطة دمثون، يقومون في آن واحد بحفظ الهدوء والنظام، على ضوء صالات السينما الضعيف يتنفس الجميع الدعة والحداثة، وتجد نفسك في المحيط الخيالي «لترومان شو» هذا الفيلم الأمريكي الذي يروي قصة شاب ساذج يقضي بعض الوقت ودون أن يدري في قرية وهمية مبنية بكليتها من الديكورات، وجميع سكانها من الممثلين الذين يقومون بتصوير مسلسل تلفزيوني.

من كل هذا نريد أن نقول إن الإيرانيين هم بكل معنى الكلمة أكثر الشعوب تفاخرا، وتبرهن جزيرة كيش أنه بقليل من الجهد وقليل من الأفكار تستطيع إيران أن توجد هي أيضاً عالما متمدنا طاهرا، وتستمتع في نفس الوقت بنمط المجتمع الاستهلاكي الغربي، وأخيرا يستطيع الإيراني أن يشير إلى أبناء عمومته في أمريكا أن وطنهم الأم ليس محكوما عليه بالتخلف إلى الأبد.

وما يثير الدهشة أكثر، أن هذا الوضع قد تحقق بواسطة النظام الحالي وبموافقته، وهذا يقودنا إلى سؤال أكثر شمولية، هل كل هذا

التقدم الذي حققته إيران في جيل واحد (الكهرباء، الطرق السريعة التعليم الأساسي، تحديد النسل، الجامعات، جزيرة كيش) هو بكامله من منجزات الجمهورية الإسلامية فقط؟ ألم يكن كل هذا في صلب طموحات الشاه،؟ وكل ما تحقق كان يمكن أن يتحقق، وربما بشكل أفضل، دون هذه الطفرات الثورية؟

وبالطبع لن يستطيع أحد الإجابة على هذا السؤال، لنقل ببساطة إن الشاه الذي أراد أن يجعل من نفسه طاغية متنورا، لم يكن في الحقيقة إلا نصف متنور، كان الشاه هشا ومعقدا وضعيف الثقافة، ولقد عانى دون شك من شخصية والده الطاغية، رضا شاه، مؤسس الإمبراطورية والذي كان مساعد ضابط سابق وعرف عنه ثورات الغضب والعنف، وكان الشاه الابن إلى جانب طموحاته النبيلة نحو شعبه أسير عالم من التردد والأوهام والأخطاء، كان نموذجا من نبوخذ نصر إنما كان ينقصه نموذج دانييل[1] كي يستطيع ان يتنبأ و يفكك إشارات في أحلامه عن إرهاصات سقوطه. والأهم أن يعمل على منع هذا السقوط. وحقيقة القول، إنه لم يعرف أبدا أن يصغي للآخرين. وتشرح كل هذا قصة قصيرة ومتداولة فقد استقبل مرة وزيرا سابقا فقد الحظوة لديه و كان قد خدم البلاط زمن والده رضا شاه، قال الوزير السابق ردا على العديد من الأسئلة التي وجهها إليه الشاه: «ماذا تريد يا سيدي، في زمن والدك ما كنا نجرأ على الكذب، أما في زمانك فلم نعد نجرأ على قول الحقيقة».

(1) شخصية أسطورية عاش مسبيا في بابل وضعه التقليد المسيحي في عداد الأنبياء الأربعة، له سفر باسمه في التوراة كتب عام 165 ق.م. نجا من الموت بمعجزة.

لو جاز لنا ـ وبهذا المعنى نفسه ـ العودة إلى الماضي كي نتنبأ بالحدث قبل وقوعه، لاستطعنا القول إن إيران، كانت تتجه عام 1970 نحو مناخ من الاضطرابات الخطيرة، ولا نعلم إذا كان ما حدث سيحدث في نفس الطريقة وفي نفس الوقت الذي وقع فيه لو لم يكن الخميني موجودا. إنما كان لابد في كل الأحوال من دفع ثمن مرتفع، هو ثمن الاقتراب من الحداثة.

8

نزهات الهناء

ليست النزهة في إيران مسألة بسيطة. إنها أداة اللهو العائلية الرئيسية بالإضافة إلى العروض السياسية الضخمة، التي هي، على الرغم من الصور الوحشية التي تعرضها تلفازات العالم، نوع من النزهات الجوالة سيرا على الأقدام.

لنقس نوعيتها على هذه النزهات الأخيرة، ففي احتفالات الثورة السنوية وفي يوم القدس الذي أوجده الإمام الخميني كي يعبر عن ارتباط العالم الإسلامي بالقضية الفلسطينية (وهو يوم يبدو أنه لا يحتفل به جديا إلا في طهران)، يدعى الشعب للمشاركة في مواكب تقام في المدن الكبرى. وعندما يهبط المساء، يعلن المذياع والتلفاز الحكوميان وفي كل مرة عن تدفق ملايين المتظاهرين، ودائما ما يزيد عن المليون في طهران وحدها. وربما كانت الأرقام الحقيقية أكثر تواضعا، ولكن أخيرا، إذا كان الواقع لم يستجب لتوقعات النظام فلا يعوزه اللجوء إلى صور من الأرشيف، وبهذه الطريقة نستطيع أن نرى موكبا جرى في ذروة الصيف تعرض صوره في اخبار المساء في القناة الأولى وفيه أشخاص يرتدون الكنزات الصوفية.

ولو تمعنا في الصور، سنجد الجماهير تصرخ وهي تشدد عباراتها: «الموت لأمريكا»،: «الموت لإسرائيل»، ويرقص الحشد وهو يحرق الأعلام الأمريكية أو الصهيونية، وباستطاعة المشاهد أن يعتقد أن هذا الحشد

جاهز لعبور الصحراء ثم المحيط كي يذهب دون أن يعيقه شيء لسحق الأولى والثانية، ولكن فيما لو تركنا الشاشة والصور المنتقاة التي تتوالى عليها، ونزلنا إلى الشارع، لوجدنا أن الجو بوضوح أكثر تسامحا. وشارك كثير من الناس في البداية بشكل عائلي بما يمكن اعتباره فترة استجمام في نهاية الأسبوع، أما المحيط العام فهو يشير إلى هذا الجو الشعبي: ستاندات، موسيقى، بالونات للأطفال، باعة متجولون، توزيع أطعمة وأشربة مجانية، ولست متأكداً أن كل الناس جاؤوا طوعا وبشكل عفوي، إذ يمكن مشاهدة أعداد السيارات الكبيرة الخاصة وهي تنتظر في الأزقة المجاورة، ولكنهم في النهاية ما داموا قد وصلوا إلى هذا المكان كي ينالوا رضى رئيس لجنة محلية أو عضو فيها، فلم لا يقضون وقتا طيبا؟ ولو سئلت واحدة من ا لصبايا الصغيرات الوديعات التي كانت تسير في الموكب برفقة زميلاتها في المدرسة أو الحي، لماذا تصرخ «الموت لأمريكا»؟ فسوف تجيبك بأنها لا تعرف شيئا.

لنعد الآن إلى النزهات الحقيقية، ولنصل إلى جوهر هذه العادة الشبيهة بالطقوس، والمعقدة، والمنتشرة في كل مكان، يجب أن نصف مكوناتها الرمزية.

أولا: السجادة في الوسط والتي ستوضع عليها الأغذية ويجلس على أطرافها متربعا كل فرد بعد أن يخلع نعليه، وهي تكرر بهذا الشكل بتمركزها فوق الأرض الفناء الداخلي للمنزل، إنما مع نقوشها التي تمثل أزهار جنان الفردوس، وفي الحقيقة لا يستطيع المرء أن يثمن كل الإيقاعات التي تضمها النزهة الفارسية إلا إذا شرحنا التذوق المسبق للجنة كما وصفت في الإسلام، فهي جنة نزهة لا تنتهي، وكي نحمي هذه

السجادة من بقع الطعام أو الشراب، وهي لن تتأخر في الحدوث، فإنهم يغطونها غالبا بغطاء شفاف من البلاستيك، يشترى بلفافات كبيرة، وقد بدؤوا باستخدام نفس الغطاء في البيوت في نظام الحياة العائلية حيث يأكلون قعودا على الأرض، وأحيانا، تستبدل الوظيفة التزيينية للسجادة التي يحميها غطاء شفاف، بغطاء من البلاستيك طبعت عليه زهور وصور عصافير، ويشترى هذا الغطاء بالمتر من محلات الخرداوات، ويقطع من «رولو» مستورد من اليابان، وعلى هذه الفسحة أيضا يستمتع الرجال بالقيلولة، بعد أن يكونوا قد تناولوا طعامهم.

بعد السجادة يأتي منقل شواء الكباب وكل ملحقاته، وهو بأشكال مختلفة، كما يمكن له أن يصنع من بقايا أدوات قديمة. وبعد الوصول إلى المكان المحدد للنزهة، يسعى كل فرد لجمع قطع الأخشاب الصغيرة والأغصان الدقيقة التي ستساعد على اشتعال النار، وعندما يتكون الجمر يضعون شبكا توضع عليه أسياخ اللحم التي تبدأ بنشر رائحة الشواء المختلطة بالدخان المتصاعد، فتسر بها الأنوف ويسيل لها اللعاب، وفي الزمن الماضي، كان الرجال، وقد امتلأت بطونهم يدفنون في نفس المنقل كريات الحشيش كي يغوصوا في أحلامهم لبضع ساعات.

ولا تقدم المطاعم في إيران كلها ـ سواء كانت كبيرة أو صغيرة، فاخرة أو مقامة بتواضع على جانب الطريق ـ إلا هذا البرنامج الغذائي الذي يتناقض عمليا مع تنوع الأطعمة التي تقدم داخل البيت الإيراني، ويستطيع من يصل أولا إلى بقعة مناسبة أن يفتتح مطعما بمجرد أن يضع مشواة ينصبها فوق أربع من حجارة الآجر، ويجمع كمية من الحطب، ثم يضم أربع طاولات إلى بعضها البعض واثني عشر كرسيا، أو ما هو أبسط من

ذلك، تختين أو ثلاثة والتخت عبارة عن سرير خشبي مجهز بسرعة تغطيه سجادة (تمتلىء مع الزمن بآثار الدهون والبقع المختلفة)، حيث يتناول الزبائن طعامهم عليه متربعين، أما أن يكون كل ما يقدمه هذا المطعم هو شواء الكباب فيبدو لكل امرىء أن هذا أمر طبيعي، ما دام المرء يتناول طعامه خارج المنزل، وخارج الفناء الداخلي العائلي، وهذا يعني أنه في رحلة، لذلك فهو يعيش جو النزهة.

وهناك بالطبع السماور النحاسي المتصل بأنبوبة الغاز المعدة للمخيمات، ويتربع فوقه إبريق الشاي، وهو المشروب الوطني الذي يحتسونه طيلة النزهة، وتوضع إلى جانب السماور علبة السكر المقطع. وكي تشرب الشاي على الطريقة الإيرانية، يجب أن تدس مكعبا من السكر ما بين باطن الخد واللثة. وهكذا، عندما ترتشف الشاي يصل إلى قطعة السكر فيذيب شيئا منها مع كل رشفة، أما في الطرقات العامة فيوضع السكر في الكأس دون أن يُحرك، لذلك تكون حلاوته متدرجة حسب الوقت اللازم لذوبان السكر. والطريقة الإيرانية في شرب الشاي تعطي انتقالا متعاقبا بين الحلاوة والمرارة، بحيث يصعب التخلي عنها عندما يتذوقها المرء ويعتاد عليها.

ويوضع السماور النحاسي بعيدا قليلا، لأن الناس تضطرب لفكرة أن يقوم الأطفال الذين يجرون في كل الاتجاهات ويتسلقون الأشجار داخله والاكتواء بمائه الساخن، ولكني مع ذلك لم أسمع أبدا بحادثة عائلية من هذا النوع، لذلك فالخطر لا بد أن يكون متكاملا مع السلوكيات، كما هو الأمر في نوع آخر من الخطر المتوقع وهو غياب الحواجز من الشرفات في البيوت التقليدية، ومع ذلك فلم يمنع ذلك أي أم من أن تنام قريرة العين مطمئنة.

وحديثنا عن السجادة والمشواة والسماور، لا يعني أنها كلها موجودة دائما، فسائق سيارة الشحن الكبيرة يتناول فطوره دائما إلى جانب الطريق، وتحل منشفة أو صحيفة أو منديل محل السجادة، وعندها لن يكون هناك لا كباب ولا سماور، وفي المناطق ذات الكثافة الكبيرة من المتنزهين، كما في الحدائق التي تحاذي نهر أصفهان، والتي تتمتع بشعبية كبيرة بسبب مناظرها المكشوفة والتي لا تحجبها الأبنية، وكذلك على الجسور ذات القناطر، أو على المروج الخضراء المحيطة بالقصر الكبير، أو حتى إلى جوانب الأضرحة التي تشكل أماكن زيارة للتبرك، ولكن الناس لا يتجاوزن أسوارها تعبيراً عن الاحترام، وعندما تتجاوز المجموعة ثلاثة أو أربعة أشخاص، لابد أن يكون لديها أنبوبة غاز لتسخين الطعام وتسخين السماور، وما أتعس الأجانب مثلنا، الذين لم يجهزوا ما يسمح لهم باحتساء كأس من الشاي في هذا الجو البديع، ولكن الأمر لن يتأخر كثيراً، فمن السجادة المجاورة، وبعد بضع نظرات يختلسها الجالسون عليها، تليها بضع ابتسامات ترتسم على الوجوه، سيقترب أحدهم من هؤلاء الغرباء داعيا إياهم لتناول كأس من الشاي.

يجب نقل كل هذا العتاد، وبالسيارة طبعا، أو بسيارة شحن صغيرة مكشوفة يتكدس في صندوقها الأشخاص وأدوات الطعام، وقد يغطى صندوقها إذا كان الطقس بارداً. وكذلك يمكن استخدام سيارات النقل الكبيرة (الباصات) إن لم يتوفر الأفضل، وحتى الدراجات النارية. ومن الملاحظ أنه عند الوصول إلى المكان المحدد، تبقى وسيلة النقل قريبة من مكان جلوس المتنزهين، وهكذا ترى أعدادا كبيرة من المتنزهين منتشرين على جانبي الطريق السريع يتابعون سيل العربات المختلفة،

وغالبا تحت شمس حارقة، ويتساءل المرء كيف تحتمل النساء الملتحفات بالشادور ذلك.

ويقوم الإيرانيون كثيراً بنزهات مسائية وخاصة في فصل الحر فيقصدون منتزهات المدن الكبرى على ضوء الفوانيس وأنواع أجهزة الإنارة الأخرى التي يحملونها معهم، للتخلص من الحر الخانق في الشقق، ولأخذ قسط من البرودة، ويسهرون في حلقات حتى ساعة متأخرة من الليل، وبعد أن يكون الأطفال قد لعبوا حتى استنفذوا قواهم، فناموا في أحضان أمهاتهم وجداتهم وحتى أخواتهم الأكبر منهم.

ولا نستطيع أن نختتم هذا الفصل عن النزهة في إيران دون أن نشير إلى النزهة الكبرى «سيزدا بيدار» والتي تتوج احتفالات نوروز، وهو عيد رأس السنة الجديدة في العالم الإيراني والذي يتوافق مع بدء الاعتدال الربيعي.

عندها، وبعد انقضاء الأسبوعين الأولين من آذار، وبعد أن يكون كل شخص قد أتخم بالهدايا والأطعمة والملابس الجديدة في جو من الهستريا الشاملة، يتوقف كل شيء، ويرتد كل الناس إلى حياتهم العائلية. وبدءاً من اليوم التاسع عشر من آذار، أي عشية عيد النوروز يقود الناس سياراتهم في طهران كما كانوا يفعلون في برلين الشرقية في أعوام الخمسينات ليقطعوا في ساعة أو أكثر، مسافة يمكن قطعها في الأحوال العادية بثماني دقائق فقط.

وشاهدت مرة في الليل ـ بعد أن تدفق الناس خارج بيوتهم ـ بعض الرجال يقفزون فوق نار مشتعلة وسط طلقات البارود، وهم يرددون عبارة طقسية هي: «يا نار خذي صفرتي وأعطيني حمرتك»، وهي عبارة يطلبون

فيها من النار المشتعلة أن تشفيهم من أمراضهم وتهبهم قوة الحياة، وتعود هذه العادة إلى طقس زراداشتي قديم يطلقون عليه عبارة «تشاهار شامبي سوري». وقد حاول النظام ولفترة طويلة أن يمنع هذه الطقوس دون أن يتمكن من ذلك، لذلك اكتفوا الآن بمحاولة ضبطها، وعدم اصطدامها بالأعياد الدينية الإسلامية التي تنظم وفق التقويم القمري، الذي يصادف بالتالي أياما مختلفة في السنة الميلادية.

وتنزوي كل عائلة في بيتها، ليبدأ بعدها التوجه إلى أماكن الاصطياف، كشواطىء بحر قزوين مثلا بعد أن يكون قد تكامل اجتماع الأهل والأقارب. في هذين الأسبوعين تحتجب الصحف، فتفرض على الناس الاستماع إلى برامج المذياع والتلفاز الهزيلة. وتفتح محلات السلع الضرورية أبوابها كرها. أما محلات الملابس والكهربائيات فتفتح مساء لفترة قصيرة للإفادة من العائلات المصطافة.

وفي هذه الفترة من الأعياد من عام 2003 بدأ التدخل الأمريكي في العراق، ولأن الحرب تجري أمام بوابات البلاد، فقد تشكل في المنطقة مشهد جديد، أما الحدث نفسه فقد سقط في حوض عدم الاكتراث العميق، ولم ينتج عنه إلا شبكة رقيقة جدا من ردود الأفعال الرسمية، عبر بيانات حررها مسؤول حكومي ، ربما أملاها من منزله الريفي عبر الهاتف على الوسيلة الإعلامية الوحيدة التي تعمل في تلك الفترة وهي وكالة الصحافة الوطنية، إذ إنها لا تتوقف عن العمل رغم الأعياد، أما الأفراد القليلون الذين أمكن سؤالهم عن مشاعرهم، فقد أجابوا بشكل عام: «إلهي كي بياند» ومعناها «يا إلهي دعهم يأتون إلى هنا ـ يقصدون الأمريكيين ـ ».

في عام 2004، وقعت كارثة من نوع آخر. ففي أيام النوروز اختارت الوكالة الدولية للطاقة الذرية أن توفد إلى إيران بعثة تفتيش مفاجئة، فلماذا أرادت المنظمة أن تفسد على كثير من العاملين استراحتهم؟ لذلك رفضت الإدارة الإيرانية المواعيد التي جاءت قبل موعدها وطلبت التأجيل. وانطلقت صيحات الاستنكار في أوروبا وأمريكا اللتين استشفتا وراء رد الفعل هذا، أكثر المخططات سوادا، لكن من في بلادنا يقبل عملا كهذا بين عيد الميلاد وعيد رأس السنة؟ وهل فكرت الوكالة أمام خطر احتجاجات موظفيها؟ وهكذا ولد سوء التفاهم، وصراع الحضارات.

لم نرو كل هذا إلا كمقدمة للنزهة الكبرى، سيزدابيدار. فبعد ثلاثة عشر يوما من نوروز، يقضي ستون مليون إيراني ـ وبعبارة أخرى كل الشعب الإيراني القادر ـ يومه خارج المنازل، لا يعيقهم أي شيء يمكن أن يحدث، في ذلك اليوم، تترك البيوت فعليا للشياطين التي تؤدي ما تشاء من رقصات السارابند[1] sarabandes، وتعبث في الزوايا كي تنسحب بعد ذلك دون إن تشوش على القاطنين حياتهم بقية أيام السنة، مرة أخرى نقول إن كل هذا لا علاقة له بالإسلام، إذاً هناك ستون مليون إيراني ينزلون إلى الشوارع ويندفعون على الأقدام، أو في عربات خشبية، أو في سيارات يحملون معهم عدة النزهة، وسواء أمطرت السماء مدرارا، أو هبت الريح عاصفة فلن يتبدل من الأمر شيئاً، وفي عام 2002 جرى الاحتفال بسيزدابيدار في معظم أنحاء إيران تحت وابل من المطر استمر من الصباح حتى المساء، ورغم ذلك خرج الناس من بيوتهم في الصباح، ولم يعودوا حتى المساء مبللين بالمطر.

(1) رقصة النبلاء التي انتشرت في القرنين السابع عشر والثامن عشر في البلاط الإسباني وتتألف من ثلاث حركات، وهناك أيضا موسيقى السربند.

والازدحام عند مخارج المدن هو نفسه وقت خروج المتنزهين وعند عودتهم، ازدحام لا يوصف، ويقول الناس حينئذ إنه من الأفضل أن يكونوا بلا سيارة، ويحلوا في أول زاوية معشوشبة والأقرب إلى منزلهم حيث يمكن الوصول إليها، وغالبا ما يكون هذا المكان مستديرةً مركزية بسيطة عند أحد المنعطفات أو أرض تغمرها الشمس تتوسط جادة ما عند طرق متعددة، وحولهم يقف بحر من السيارات، الرفرف لصق الرفرف، ومزينة غالبا فوق السقف أو الغطاء بباقة من النباتات الخضراء، وغالبا ما تكون من سنابل القمح الذي نمى حبه، والذي تقضي التقاليد أن يزرعه المرء في بيته خلال فترة الأعياد، على المرء أن يذهب إلى مجرى ماء فيلقي بحزمة القمح فيه مع فواكه أخرى مختلفة، وخاصة السمك الأحمر رمز الازدهار والذي يشترى أيضا بمناسبة نوروز، حيث يحتفظ به الأطفال في دورق يضعونه على ركبهم قبل أن يقولوا لهذه الأسماك: إلى اللقاء.

من المفهوم أنه عند خروج الناس من منازلهم يسعون للعثور على نهر، أو على الأقل على جدول، ولكنه طالما أن هذا الأمر غير متوفر دائما في وسط إيران، لذلك تفي بالغرض أصغر ساقية ماء أو حتى قناة في المدينة. وحقيقة القول إن كثيرا من حزم القمح لا تصل أبدا إلى الماء، فبعد ساعة أو ساعتين من السير البطيء بسرعة 10 كيلومتر في الساعة يستطيع السائق أن يسرع قليلا، فتسقط الحزم المربوطة إلى هياكل السيارات بإهمال من أماكنها لتتناثر على الطرقات، ونحو منتصف النهار، وبعد اجتياز آخر الضواحي في المدن تصطبغ الشوارع ببقع خضراء لامعة تاركة انطباعا بالسعادة الغامرة.

ويقدر الله أخيراً أن تعثر العائلة على شجرة، وهو أمر هام: أولا لحماية أفراد العائلة من الشمس أو من المطر، وكذلك لنصب أرجوحة، هي أرجوحة

السعادة عند الأطفال، وهي التي تجعل عيد النوروز ناجحا تماما بالنسبة لهم، ولكن معظم أجزاء إيران تفتقد الأشجار، فهي أكثر من نادرة، ولذلك ليس من ضمان للنجاح في مسعى للحصول على واحدة، وإذا عثروا على شجرة فليس بالضرورة أن تكون أغصانها قوية بما يكفي لتحمل الأرجوحة. ولكن عندما يتحقق كل ذلك، ففخر أي فخر، وسعادة أية سعادة.

وبين النيران التي توقد على الأرض والألعاب النارية التي تضيء السماء، بمناسبة تشاهارشامبي سوري، ومن ثم حوادث المرور، والسقوط من الأراجيح أو الاصطدام بالسماور في سيزدا بيدار، يعتقد المرء أن مستشفيات إيران تمتلىء تقريبا مع انتهاء أعياد نوروز، أما بالنسبة للبيئة، فالثمن ليس بخسا، ففي ملايين الأماكن، تبقى الأرض مغطاة بقشور البطيخ وقشور الفستق وعظام الدجاج ومخلفات أخرى قابلة للتحلل البيولوجي، وهذا أقل الشرور، إذ إن هناك أيضا مخلفات البلاستيك بمختلف الأشكال ـ أكياس، زجاجات، صحون، أكواب، أغلفة متنوعة، وأكياس البطاطا الشيبس والسكاكر والبسكويت والشوكولا من مختلف الأنواع، والتي ستحتاج إلى سنوات كي تذروها الرياح أو تتحلل في التربة، فيما لو تحللت على الإطلاق.

وأخيرا، لا يبدو أن أحدا يساوره القلق بشان هذه المخلفات، حتى يبدو أن أحدا لا يراها، وإن رآها قد يقول لنفسه إن إيران في تاريخها الذي يمتد آلاف السنين قد خرجت بخير من مشكلات أكثر تعقيدا. لذلك من الأفضل أن ننسى كل هذه المشاهد البائسة ونحتفظ بدلا من ذلك بفكرة أن كل فرد يحمل في طريق عودته الصورة الاستثنائية لبلاد تحولت في يوم واحد إلى فردوس عظيم يتشكل من ملايين الفراديس الصغيرة المتجاورة.

9

الأئمة الأعزاء

يحار المرء عند الحديث عن الأئمة في إيران كيف يبدأ. ربما تكون البداية المناسبة بالتطرق إلى فن التربية.

يؤمن المذهب الشيعي أن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء، وهو النبي الأخير من اثني عشر نبيا أرسلهم الله، حيث يعتبر آدم هو الأول بينهم، وفيهم يأتي نوح وإبراهيم وموسى ودانيال والمسيح، ولكن ما يستدعي الحزن الشديد أن نرى انتفاء كل إمكانية لإغناء الوحي بعد وفاة الرسول ﷺ، وقد ترك محمد ﷺ بدوره ـ وبتزويج ابنته الوحيدة فاطمة ـ سلسلة مؤلفة من إثني عشر إماما، يتصفون مثله بالكمال «العصمة». ومهمة هؤلاء الأئمة كشف معاني ما هو مستور، لمن هم أهل لتلقي المعاني المخبأة في الرسالات المقدسة التي أنيط بها الأنبياء.

وهكذا يبدو الرسول وكأنه الحلقة الوسيطة في تاريخ العلاقة بين الله والإنسانية، فقبله كان الموروث الظاهر وبعده كان الموروث الباطن. ونجد هنا التوتر الذي تتصف به كل الديانات الكبرى الناتج عن وجود حقائق يمكن للجميع الوصول إليها، لكسب عامة الناس، وحقائق جوهرية لا يمكن بلوغها إلا لقلة من الناس بعد قطع طريق طويل من الدراسة والبحث، ولذلك يجب حجبها عن ضوء النهار.

وقد لمع من الأئمة الاثني عشر أربعة منهم بشكل خاص. أولاً: علي ﷺ وهو صهر الرسول، الذي أبعد عن الخلافة من غير وجه حق بعد وفاة الرسول، وقد أصبح فيما بعد خليفة لوقت قصير وانتهى به الأمر إلى اغتياله، وبقيت قيادته الحافلة بالحكم حول سلوك الرجال والمجتمع، مثالا للحكومة الكاملة وتحقيقا لمدينة الله على الأرض ولو لوقت قصير جداً.

ثم قتل ابنه الحسين في الصحراء مع القسم الأكبر من أسرته ونفر قليل من أنصاره من قبل جيش متفوق جداً بالعدد، وذلك عند اقترابه من بغداد ليطالب بحقه في الخلافة، وقد وقعت المعركة في كربلاء عام 680 ميلادية، وارتفع الحدث إلى مصاف سير الأنبياء، كسيرة المسيح الذي صلب، وقد غذت خطب الملالي التي لا تنقطع هذه السيرة، ويستعيد الشيعة كل عام ذكرى مقتل الحسين في سلسلة من الاحتفالات تمتد أربعين يوما من الحزن تتخللها مشاهد تمثيلية واجتماعات جماهيرية كبيرة.

يأتي بعده الإمام رضا[1]، وهو الإمام الثامن الذي قتل مسموما بعنقود عنب قدمه اليه الخليفة الموجود آنذاك والذي استدرجه إليه مؤملا إياه بأن يكون خليفته. وجاءت شهرته العظيمة لدى الإيرانيين بسبب موته قرب مشهد في غرب البلاد. ولهذا فهو الإمام الوحيد الذي يرقد جثمانه في إيران. وله مقام كبير، مؤلف من عناصر عمرانية غريبة ويضم بعض العجائب العمرانية الفارسية.

(1) هو الإمام الراضا بن موسى الكاظم 770 - 818م، جعله المأمون وليا لعهده واستدعاه إلى مرو، ثم توفي بطريق عودته مع المأمون إلى بغداد، وقيل إن المأمون هو الذي سمّه (المترجم).

وهناك الإمام الثاني عشر، الذي لوحق ككل الأئمة السابقين من قبل الخلفاء، فاختبأ منذ طفولته كي يحمي نفسه منهم، ولأنه نشأ في الخفاء، فقد اختار بعد سنين عديدة بعيداً عن عيون الناس، أن يختفي نهائيا، معلنا عودته في نهاية الزمن كي يقيم العدل والسعادة على الأرض. ونحن نرى في هذا الأمر ظل أسطورة زرادشتيه قديمة، أخذتها منها اليهودية ثم المسيحية.

إلى جانب هؤلاء الأئمة الأربعة الأتقياء نضيف شخصا خامسا. أنه فاطمة المعصومة أخت الإمام رضا (الإمام الثامن الذي مات مقتولا في الثامنة عشرة من عمره). فبينما كانت فاطمة تتجه نحو مشهد للانضمام إلى أخيها، هاجمت عصابة من قطاع الطرق قافلتها بجوار مدينة قم. وقد استطاعت الإفلات من العصابة والالتجاء إلى المدينة، ولكن الهزة كانت قوية جداً، لذلك ماتت من الحمى بعد بضعة أيام.

وقد تحولت حياتها المتواضعة والقصيرة بفضل تعظيمها من قبل المؤمنين، إلى رمز للمرأة الكاملة، المبرأة من الدنس على غرار السيدة العذراء، وقد قدمت للإيرانيين في المكان الذي دفنت فيه الضريح الثاني الذي يضم شخصاً من آل الرسول، وبالتالي مكانا آخر كبيراً للحج. ومدينة «قم» التي تبعد عن طهران مئة وثلاثين كيلومترا هي إلى جانب ذلك مدينة الجامعات الدينية.

وقد اختار النظام أن يضيف اسما سادسا إلى القائمة، وهو الإمام الخميني، لقد حاولوا التخطيط لفكرة أنه قد يكون الإمام الغائب نفسه، أو المعلن عن ظهوره، لكن هذا الكلام الذي قيل همسا سرعان ما تلاشى.

أما الضريح الذي شيد لرفاته في جنوب طهران إلى جانب الطريق السريع إلى قم، فقد جذب قليلا من الاهتمام وخاصة الاهتمام الحكومي، ففي عام 2006، وبعد ثمانية عشر عاما من وفاته لم يتم إنجاز بناء الضريح، وتشبه القاعة المركزية الكبرى التي تضم الضريح مستودعا كبيرا أكثر منها قاعة للصلاة، أما بقية المبنى فهو تقليد كئيب للفن الديني الإيراني، وأقرب ما يكون إلى ديزني لاند إسلامي.

ويعوض عن ذلك ملمح واحد: عندما نقترب مساء من طهران وبالتحديد على الطريق السريع المتجه نحو قم والمزدحم دائما بالسيارات والمتعب جدا،يبدو مشهد المنارات الكبرى المضاءة وكأنه انعتاق من وعثاء الطريق، ويغلف الظل بإشفاق قبح الصرح الذي يشكل أحد علائم الطريق أما الليل فيحيطه بنوع ما من الجمال.

وأما مقام مشهد فهو شيء آخر، وعلى الرغم من أنه يكبر بشكل مستمر عن طريق إضافة أبنية حديثة تتطاول على فسحة البازار القديم،الذي هدمه الشاه جزئيا، وهو قلب المكان الذي يشكل مركز شبكة مؤلفة من عشرة ساحات تنتشر على أطرافها صروح تشبه مساجد أصفهان، ويبدأ الوصول إلى الضريح من صالة كبرى ذات أعمدة و طابع تقليدي و جدران وسقوف مغطاة بالكامل بمقطعات من المرايا، وقد دخل هذا النظام العمراني الذي جاء مع القاجاريين كل الأضرحة الكبرى. ويخلق هذا الطراز مناخاً خاصاً جداً حيث تنمحي حدود الواقع، إذ تعكس كل قطعة صغيرة من المرايا ـ الجواهر الميتافيزيقية عند لايبنتز ـ وحدة العالم الذي يحيط به، ويشعر الناظر أنه دخل إلى نوع من العالم الوسيط بين الأرض والفردوس.

إنما، ليس هذا هو الجوهر. فهذا المكان الذي يفتح لمدة 365 يوما و24 ساعة في اليوم الواحد، يستقبل كل سنة ما يقرب من اثني عشر مليونا من المؤمنين، أي أكثر من مكة، كما يتفاخر الإيرانيون، وبالتأكيد أكثر مما يستقبل ضريح القديس بطرس في روما الذي يغلق أبوابه بشكل مبتذل بين الساعة العاشرة مساء و السادسة والنصف صباحا، وفي الحقيقة عندما تدخل الضريح صباحا،أو بعد الظهر أو في قلب الليل ستجد الناس تدخله وبشكل كثيف قادمين وكأنهم المد يرتفع متجها إلى القبر و يتسارع شيئا فشيئا، ويهوج منفعلا ليغمره النحيب كلما ازداد اقترابه من الضريح ثم تمتد الأيدي لتلمس الحاجز الفضي الذي يحيط به ويحول بينه وبين الزائرين، وأخيرا تتمكن الشفاه من الوصول إلى الحاجز فتقبله وتلتصق به الجباه للتبرك بصاحب الضريح ، وتبلله الدموع المنهمرة مدرارا.

وفي الساحات المجاورة سواء كانت مكشوفة أو مغطاة، يكون الجو أكثر هدوءا، فهنا ساحة مخصصة للمرضى الذين نذروا أن يبقوا بضعة أيام، أو بضعة أسابيع، أو الوقت اللازم لشفائهم، مشدودين إلى قبر الإمام بخيوط قنب طويلة مربوطة بأجسامهم كي يصلها تيار بركته، وهناك أشخاص يتجولون، أو يأكلون عائليا، أو يتوضؤون، أو يصلون، أو يقرؤون النصوص المقدسة التي توضع بسخاء مفرط بتصرفهم في جميع الصالات، وغالبا ما تقدم مقابل مبلغ من المال.

وعند قراءة هذا الكلام قد يتصور المرء أنه أمام ميدان عظيم تجترح فيه المعجزات، لكن الأمر ليس كذلك فكل شيء يتصف هنا بالطهارة المنزهة وفي أدق التفاصيل، وهو في نفس الوقت مكان ساحر يضيف إليك الإحساس بالولوج إلى عالم داخلي فليس هناك أصغر قطعة بلاستيك، أو

قصاصة ورق على الأرض في الداخل أو الخارج، ولا أثر لغبار حتى في زوايا الباب، ويعود الفضل في هذا إلى جيش من خدم الضريح هم أنفسهم في منتهى النظافة، ويرتدون جميعا لباسا موحدا، وهم مجهزون إما بمكنسة أو بمجرفة صغيرة للغبار لها يد طويلة توفر عليهم مهمة الانحناء وتسمح بالتقاط كمية أكبر، وإما بمكانس يد صينية لها ذراع طويلة في نهايتها خصلة من خيوط النايلون المتعددة الألوان حيث تسمح الكهرباء الساكنة بالتقاط ما تبقى.

إنهم وعلى الأخص مكلفون بفرض احترام النظام في الداخل، فهم يردعون مثلا العائلات التي يلاحظون أنها ستبقى في المكان لقضاء الليل. وهم يقومون بهذه المهمة بأكبر قدر ممكن من الهدوء والملاطفة، حتى لو تعلق الأمر بالمهاجرين من فقراء الأفغان.

ثم لديهم مسؤولية ثقيلة هي الفرز والتصنيف والحساب والمقصود الكمية الضخمة من القطع النقدية الصغيرة التي يلقي بها المؤمنون الى الضريح كهبات، فيحصونها ويسجلونها في الإيرادات، وتنفذ هذه المهمة في صالات مخصصة لهذا الغرض، حيث يتربعون في صفوف طويلة أمام أكوام النقود التي يغذيها باستمرار زملاؤهم، إذ يصبون فوقها محتويات أوعية كبيرة مليئة بالقطع النقدية.

ومن المفهوم أن الارتباط بضريح الرضا في مشهد هو شرف عظيم يتوارثه القائمون عليه جيلا بعد جيل من العائلات المتواضعة والأكثر تدينا في المدينة، أما الأموال التي تجمع، فهي ومنذ قرون تعود إلى أوقاف تديرها المؤسسة الوقفية، وهي المؤسسة الأكثر غنى والأكثر قوة في إيران، وربما كانت الأغنى في العالم كله.

تمتلك هذه «المؤسسة» الأراضي والمساكن ومدينة مشهد والتي تضم أكثر من مليون نسمة، كما تتمتع أيضا بامتدادات ضخمة في المحافظة، وأراض واسعة في كل إيران، ومصانع وأبنية وشركات في كل الأمكنة والأصقاع، وحتى خارج إيران، إنها في الحقيقة لا تعرف ما تملك، وربما لا يعرف أي شخص معرفة مفصلة عن فروعها، ولا أحد يشجع على ذلك فهي غير ملزمة بنشر ميزانيتها، وهي في نفس الوقت لا تدفع الضرائب.

لقد تكون لدينا في مشهد الانطباع الأكثر اكتمالا في كيفية تعامل التراتبية الدينية مع التدين الشعبي وتأطيره. ونتساءل بالمناسبة، لماذا يوجد في المذهب الشيعي طبقة منظمة من رجال الدين، على خلاف بقية العالم الإسلامي؟ وربما كان الكونت آرثر دو غوبينو[1]، وهو دبلوماسي عمل في إيران مرتين متواليتين في أواسط القرن التاسع عشر، أول من شرح هذه الظاهرة، نعم إن المقصود هو غوبينو مؤلف كتاب «عدم التساوي بين الأعراق البشرية»، والعقائدي الكريه، والدبلوماسي الشاذ، لكنه في نفس الوقت كاتب لامع فيما كتبه من أخبار وحكايات في أسفاره العديدة.

إن ما يهمنا هنا، أنه أحب وفهم ووصف بلاد فارس، كما لم يحبها شخص آخر، وقد محضه الإيرانيون احتراما دائما، لنقل من جهة أخرى إنه رأى عبر منطق أوهامه أن اختلاط الأجناس هو مصدر كل أنواع التأخر، وكان متطرفا في معاداته للاستعمار، لذلك كانت كلماته قاسية جدا ضد مشاريع الاختراق الاستعماري، وضد الأوروبيين الباحثين عن الثروة والذين التقى بهم أثناء عمله الدبلوماسي، ومن خلال سلوك متناقض، وفي نقطة واحدة على الأقل كان هذا الرجعي الفظ متقدما على عصره.

(1) الكونت جوزيف آرثر غوبينو 1816-1882 دبلوماسي وكاتب وروائي.

وحسب غوبينو، فإن طبقة رجال الدين الزرادشتيين المرتبطين بقوة بسلالة الأباطرة الساسانيين كانت في حوالي القرن السابع الميلادي وفي عشية الغزو العربي تتمتع بميزات كبيرة تسببت وإلى حد كبير في أنهاك البلاد، وقد جرى استيعاب الهزيمة بسرعة، فقد عرضوا الانضمام بشكل جماعي إلى الإسلام بشرط أن يبقوا طبقة دينية في الدين الجديد. وقبل الفاتحون ذلك، وقد أخذت هذه الطبقة رعاياها معها الى الإسلام، والأكثر من ذلك حملت معها تصورها لطبيعة العلاقة بينها وبين البنى الفلسفية والروحية التي كانت متطورة جداً في البلاد، و أعطت بعد بضعة قرون هيكليتها الخاصة جدا للمذهب الشيعي، وربما تمكنت أيضاً بهذا التحريف من الاحتفاظ وسط المجتمع الإسلامي الذي اتسع كثيراً، بنوع من الهوية الفارسية التي سترفض بعناد أن تذوب في العالم العربي.

وحتى يومنا هذا، يتعامل المجتمع الإيراني مع الملالي وفق علاقات معقدة. فإذا كان آيات الله العظمى «وهم المرجعيات التي يقتدى بها» يتمتعون دائما بإنشاد الناس اليهم وباحترام كبير، ويرتبط بهم الفخر الجمعي، باعتبارهم حماة لمنارات الفكر الإسلامي، فإن الطبقة الدينية الدنيا تقابل بسخرية لا نهاية لها بسبب جهلها، وفسادها وطبائعها الدفينة.

إذاً هناك رفض إيراني حقيقي لسيطرة رجال الدين، ولكن هذا لايطفىء التدين العام بين الناس. والعكس هو الصحيح، ويعبر التدين عن نفسه بأشكال مختلفة على هامش تدخل رجال الدين. فهناك مثلا، القسم الأكبر من الاحتفالات التي تقام في شهر محرم، إحياء لذكرى استشهاد الإمام الحسين، حيث لا نلمح ملالي بين منظمي الاحتفالات، وتقريبا لا يوجد أحد منهم بين الجماهير، ولو وجد بعضهم فهم في الغالب ملالي بسطاء شدتهم إلى الاحتفال مشاعر طفولتهم في الحي أو القرية.

وفي هذه المناسبات تمسك الجمعيات الدينية، والاتحادان بزمام الأمور، فهي التي تنظم بالتعاون مع ممثلين هواة، العروض التي تحاكي حياة وموت الحسين، وأجمل الصفحات التي كتبت عن هذا الموضوع هي التي تركها لنا غومبينو في كتابه «ثلاث سنوات في آسيا»، الذي يقص فيه أخبار إقامته في فارس، وهذه المؤسسات هي نفسها التي تنظم مواكب حملة السياط.

لقد افتتن الغربيون كثيراً بهؤلاء المرتبطين بالمذهب الشيعي، ولنسارع إلى القول: إنه بعكس ما نرى في العراق أو أيضاً في المجتمعات الشيعية في الهند، فإن الدم لم يعد يسيل في إيران ومنذ زمن طويل، أثناء هذه الاحتفالات. فقد منع الشاه هذه المبالغات واستمر هذا المنع في عهد الثورة الإسلامية.

ويجلد المشاركون في هذه العروض وبشكل متعاقب الكتفين بمطرقة صغيرة لها نموذج موحد تعرض عند اقتراب شهر محرم في كل محلات بيع لوازم الصلاة وفي المحلات الراقية لبيع الخرداوات، ويشعر الناس بالانفعال عند رؤية السلاسل المعدنية مثبتة إلى القبضة الخشبية، إلا أن الخشية منها تتبدد عند استعمالها لأول مرة، إذ من المستحيل أن يصاب المرء بأذى عند استعمال سلاح كهذا، وبالأحرى لا يسمح لأقل نقطة دم أن تسيل، لذلك يجلد حملة السياط ظهورهم بتراخ كاف، وبانتباه أشد لنوعية الإيقاع الجماعي، وبالتالي للصوت الناتج عن قوة الضربات، أما الأطفال منهم فيرتدون وسط خوف أمهاتهم، رداء سميكا.

وتجول المواكب الأكثر نشاطا عشية عاشوراء ويوم عاشوراء بالكامل، لإحياء ذكرى استشهاد الحسين، ولكل حي، ولكل قرية موكبها الخاص،

وأحيانا أكثر من موكب، ولافتتاح المسيرة يحمل الشبان الأكثر قوة في نهاية عصي غليظة نوعا من السلسلة المعدنية، ويسير الموكب أحيانا بعرض الشارع كله الذي يزين بصف من ريش النعام وحيوانات رمزية: الطواويس، والوعول، والأسود.

يأتي خلفهم حشد جماعة السياط، يتوسطهم مكبر صوت متنقل يستخدمه مرافق المجموعة كي يردد ابتهالاته ويحدد الإيقاع. ويتوقف الموكب مراراً، ثم يستأنف المسير وبالإضافة إلى استعمال المطرقة، يضربون صدورهم بقبضاتهم وبشكل إيقاعي. ويرتدي الجميع السواد، ولباسهم بنطال وقميص، وكذلك يفعل الجمهور. ولا يحظر على الفتيان الذين يسيرون في المواكب أن يفتحوا قمصانهم فتحات عريضة للتظاهر أمام الفتيات.

وأشد ما يكون المشهد سحراً، عندما يصل الموكب إلى البازار الكبير. فغير بعيد عنه، وبالقرب من أحد المنعطفات الرئيسية في المدينة، تنصب خيمة ضخمة تذكرنا بخيمة الشهيد التي أشعل فيها النار عند ما حانت ساعة المعركة، وفي الأزقة الضيقة والمغطاة من البازار الذي يقضي إجازة في هذه المناسبة تعرض الاتحادات المختلفة فرقها، وتتجه بعد ذلك نحو الزقاق الرئيسي الذي صار أسودا من تزاحم الناس، وتقف المجموعات الواحدة تلو الأخرى وتبدأ بإطلاق صرخاتها يرافقها إيقاع بالأيدي التي تضرب بشدة على الصدور، ثم تنطلق المجموعات الواحدة إثر الأخرى لتشق طريقها بصعوبة بين الجماهير التي تقاطرت قبل ذلك لتحتشد في هذا الزقاق الضيق. وفي جو ضاغط أكثر فأكثر، مع الأصوات المرتفعة للسياط، والابتهالات للحسين، وضربات الأيدي على الصدور.

وتصل المسيرة أخيرا إلى الهواء الطلق في شارع عريض اصطبغ بالسواد بسبب آلاف المشاهدين والمجموعات من حملة السياط القادمين من زوايا أخرى من البازار، ونرى هناك بعض الأحصنة والجمال المزينة تذكرنا بالحيوانات التي شاركت في المعركة، وبين هذه الجموع، نرى الكثير من الأطفال الصغار على أكتاف آبائهم او أقربائهم، وأحيانا الرضع الذين يمثلوا حسب التقاليد ابن الحسين ـ قميص أبيض رمز التضحية، وغطاء للرأس وجبهة تحيط بها عصابة خضراء، يتابعون بعيون مفتوحة المشهد. نعم، نحن نعيش فعلا في عالم آخر.

كلمة أخرى حول كل ما يجري في هذا اليوم، فمن التقوى أن تأكل كل هذه الجموع وتشرب مجانا، وقد تجد في هذه الزاوية من البازار طاولة توضع كل عام على امتداد ما يقرب من قرن، يهيئُها تجار الزقاق كما تشير إلى ذلك صور مصفرة من القدم معلقة على الجوانب.

ويمكن لسكان حي ما أن يضعوا على الرصيف صفا من الحلل الكبيرة أياما عديدة تسبق المناسبة، تليها أكوام من الخشب وقطع كبيرة من اللحم وكميات من البطاطا وأكوام من الخبز تقاس بالأمتار المكعبة، ويقلبون الطعام بالمغرفة في أوان ضخمة، وتغوص المعالق في قصعات بطول طفل في العاشرة من عمره، ويقوم عشرون رجلا بطهي هذه الوجبة التي تذكرنا بوجبات بانتاغرويل[1]، حيث يقف في الصف ألف شخص أو يزيد كل منهم ينتظر دوره بهدوء للحصول على حصته، وحيث يختلط الغني بالفقير، فهذا الغذاء المبارك يهب السعادة لكل من يتذوقه.

(1) شخصية في رواية مغامرات للكاتب الفرنسي رابليه (1494-1553) تحمل نفس الاسم، وتصف الروايةبانتاغرويل أنه كان عظيم الشهية ويتناول وجبات ضخمة.

وقد تجد هناك مجموعة من الشباب يقدمون الشاي في أكواب من البلاستيك لراكبي السيارات المتوقفة عند جادة ما، كما يمكن أن يفعل ذلك شخص واحد فقط، مثل ذلك الرجل العجوز الذي شاهدناه مرة يقف أمام البازار الكبير مع دراجة امتلأ صندوقها الخلفي بعلب التمر، اتخذ مكانه وسط سيل كثيف من البشر يتدفق من هنا وهناك وكان العجوز يقدم علبة تمر إثر علبة إلى المارة الذين يتناول الواحد منهم حبة او حبتين دون أن يقول كلمة شكر واحدة، وعندما فرغت العلبة الأخيرة، وأخذت آخر حبة، دفع الرجل دراجته بخفة أكبر مغادرا المكان بقلب مطمئن بسبب إكماله الواجب، هذا هو الإسلام الذي يحبون.

ومن الواضح أن الإيرانيين يبكون كثيرا في تلك المناسبة، وفي الحقيقة تجري الدموع في إيران كل أيام السنة، وفي خطب الجمعة مثلا، كما قلنا سابقا، إنما أيضاً في المناسبات العامة والخاصة، وتشاهد القدرة على البكاء لدى كل الأعمار ولدى الجنسين أيضا، وينظر إليها على أنها قيمة إيجابية. وتظهر إحدى الصور الجدارية العديدة المنتشرة في طهران، والمكرسة عادة لتكريم الشهداء، والمخصص قسمها الأكبر للأبطال الذين سقطوا في الحرب ضد العراق، تظهر الإمام الخميني مطأطئ الرأس وقد غطى بمنديله عينين مليئتين بالدموع، وقد جرت العادة ان يبكي من يقترب من تحمل مسؤوليات كبرى في الدولة، وقد بكى خامنئي عندما أبلغوه أن يستعد لخلافة الخميني في منصب مرشد الثورة، كما بكى خاتمي علنا عام 2001 وهو يعلن قراره بدخوله الانتخابات الرئاسية لولايته الثانية رغما عنه، كذلك فعل هذا السرطان (إشارة إلى الحيوان البحري ـ المترجم)، رفسنجاني حيث أتاح للناس أن يسمعوا أنه ذرف دمعة عام 2005 بسبب

الصدمة المريرة لاحتمال أن يتقلد منصب الرئاسة من جديد، ولا بد أنه كان مرتاحا جدا عندما تجاوزته الرئاسة لصالح أحمدي نجاد.

وترك التاريخ المأساوي للأئمة أثرا كبيرا في بنية هذا الإحساس الجمعي، ولكن هل العكس صحيح؟ وكي نمزج مرة أخرى بين الحج إلى الأضرحة، والدموع، والإمام، والتدين العام، والاتصال بالجماهير سنتحدث عن قصة عيد سنوي جميل، يسمى عيد غسيل السجادة.

على بعد مئة وخمسين كيلومترا جنوب طهران، يوجد واد صحراوي مهمل محاط بقرية كبيرة هي إمام زادة أي «ابن الإمام»، وتتعلق هذه الكلمة بالسلالات و تشير إلى كل مرقد يضم رفات أحد الأولياء، كبيرا كان أو محليا متواضعا. في هذا المكان ومنذ نحو ألف سنة توفي رجل تقي، هو عم أحد الأئمة الكبار، أو ابن عمه. وبينما كانوا يحملون الجثمان إلى النهر الصغير المجاور ليغسلوه حسب الشريعة الدينية بعد أن لفوه بسجادة، هوجمت الجنازة من قبل جماعة من أعداء المتوفى. وقد حاقت الهزيمة بالفريق المعتدي.

هذه المعركة الكبيرة يعاد تمثيلها كل عام من قبل رجال القرية والقرى المجاورة، الذين يتسلحون بالعصي الطويلة ويخوضون المعركة أمام حشد من ألوف المشاهدين يتوزعون على امتداد السهل، أما من حالفهم الحظ فيجلسون على شرفات ساحتين كبيرتين متتابعتين ضمتا إلى المقام نفسه حيث يحتشد المعسكران المقتتلان ويتألف كل منهما من مئتين أو ثلاث مئة مقاتل.

وبعد الانتهاء من خطبة طويلة تذاع عبر مكبر الصوت تخرج مجموعة من داخل المقام تحمل في وسطها ما يعلن عنه أنها السجادة الأصلية التي كانت تلف الجثمان أثناء المعركة الأولى، وما إن تظهر هذه المجموعة حتى يندفع المعسكر المعادي مشرعا العصي الطويلة، وتتصادم الأسلحة، وعندها تتقدم السجادة وكأنها مركب يخترق العاصفة فتجتاز الساحة الأولى بخطوات طويلة ويشق من يحيط بها طريقهم متراصين وكأنهم خط دفاعي، بسبب ضغط المشاهدين، حتى ليكاد الواحد منهم لا يجد موطئا لقدمه، وفي الساحة الثانية يوجد حوض ماء تدور حوله المعارك من جديد، وهي معارك تذكرنا بمعارك هوميروس، وتقترب السجادة شيئا فشيئا من بوابة الضريح الأخيرة، حيث تبدأ المعركة بالتلاشي، ويتابع حملة السجادة نقلها بشكل احتفالي إلى النهر الذي يبعد نحو كيلومتر واحد لا يصاحبها أثناء ذلك إلا بعض المناوشات البسيطة.

هناك أمران جديران بالاهتمام في هذا الاحتفال: الأول هو مشاهدة دموع المتفرجين الجالسين على الشرفات العائدة للضريح وهي تنهمر على وجناتهم لمجرد ظهور السجادة، وفي كل الأحوال لا توجد امرأة لا تنفجر بالبكاء، أما الملاحظة الثانية، فعلى الرغم من العنف الظاهري للمعركة حيث يحث الموكب الخطى ويتأرجح تحت مظلة من مئات العصي، لا يقع أي حادث، ولا يسقط جريح. طبعا هناك عنف يمارس، أما الهستريا فمسيطر عليها جيداً من قبل اللاعبين والمشاهدين على حد سواء، فالعرض ينفذ بشكل جيد وكأنه مباراة كبرى في كرة القدم.

10

الظمأ للبترول

نعتقد بالتأكيد أن البترول هو الدراما الكبرى لإيران المعاصرة، فبدونه ربما كانت البلاد قد حققت تقدما أكبر، ولولاه ما أضاع الشاه علامات طريقه، وبدونه لسقط نظام الملالي، وقد شجعت موارد البترول الضخمة مستويات متعددة من سلوك الطفل المدلل.

لنتذكر أنه في إيران لا يدفع أحد الضرائب، وعلى الأقل لا يدفع أحد الضرائب بشكل جدي، وسوف يشعر أي مكلف بالإزعاج عند دفع أي مبلغ كضريبة، وبالتالي فلا أحد يدفع، وهذا صحيح بالنسبة للأشخاص الطبيعيين وكذلك بالنسبة للشركات ذات الشخصية الاعتبارية، وعلى الأخص الشركات الكبرى التي تملكها المؤسسات الدينية، وقد تبنى الرئيس خاتمي قانونا نص على وجوب خضوع هذه المؤسسات للضريبة ما عدا بعض الاستثناءات، وبكل هدوء أصبح الاستثناء هو القاعدة.

ويستفيد الجميع أو الجميع تقريبا من عائدات البترول، فهي لا توفر فقط على الناس عبء تغذية الخزانة العامة، ولكنها تسمح أيضا للخزانة العامة بأن تغذي الناس.

ويتمتع الرغيف بدعم كبير من الدولة، إذ يباع الطحين للمخابز من قبل الدولة ببضع سنتيمات من سعر التكلفة الحقيقي، وبالتالي لا يدفع

المستهلك عمليا إلا أجرة اليد العاملة، وبما أن الخبز يباع بسعر بخس فإن أفقر متسول في الشارع يمد لك يده بتعالٍ ـ فالمتسولون الإيرانيون يتصرفون بشكل عام وكأنهم أمراء ـ يستطيع من أول صدقة يتلقاها كائنة ما تكون قيمتها، أن يوفر خبز يومه.

وأما غير المتسولين، فيشترون خبزهم بالكيلو غرام، دون الأخذ بعين الاعتبار حاجتهم الفعلية من الخبز. وتراهم يتجمعون أمام المخابز، يرقبون العجين يخبز تحت أنظارهم ويستمتعون برائحته المنبعثة من الفرن، وتراهم يغادرون المخبز سعداء بما يحملون من أكوام الخبز الساخن ترافقهم رائحته في سيرهم نحو مقصدهم، وبالطبع، سيؤكل جزء من هذا الخبز بشهية، ولكن جزءا آخر سيحتفظ به للوجبات التالية. أم الجزء الثالث فلتغذية الدواجن في فناء البيت.

كما توزع بطاقات التموين على بعض المواطنين كي يحصلوا بأسعار مخفضة على المواد الضرورية من الدرجة الأولى: الزيت، الأرز، المعلبات والأقمشة، ولا تصرف هذه البطاقات إلا للمواطنين الأشد فقراً، وقد قيل إن مرشد الثورة يهتم شخصيا بحسن استخدامها.

وكذلك الوقود، فهو شبه مجاني، ولنترك القارىء الأوروبي يحلم قليلا: كان ثمن ليتر البنزين في محطات الوقود في إيران عام 2006 ثمانية سنتيمات من اليورو، بينما يكلف الدولة ضعف هذا المبلغ، لأنه ليس لدى إيران القدرة الكافية على التكرير، لذلك هي مضطرة لاستيراد وقود السيارات.

وبوجه الإجمال، تستخدم إيران لاستهلاكها الخاص أكثر من نصف كمية البترول المستخرج من أراضيها، بينما كانت هذه النسبة لا تتجاوز

الربع في زمن الشاه، والسبب أن عدد السكان قد تضاعف، وعدد السيارات تضخم، وستستمر نسبة استهلاك وقود السيارات في التصاعد نظراً لاستمرار نمو المجتمع الإيراني، وهو اليوم قرابة السبعين مليونا، وسيصل إلى قرابة المئة مليون قبل أن يستقر على ذلك، وبينما يزداد عدد السيارات مع ارتفاع مستوى المعيشة فإن القدرة على استخراج النفط تراوح مكانها. والحقيقة أنه، ومنذ أيام الشاه، لم تتطور القدرة على استخراج وتكرير النفط، ولن تتطور إطلاقا طالما استمرت العقوبات الأمريكية، وقد أخذت صعوبات استخراج النفط تزداد شيئا فشيئا في عدد من الحقول التي وصلت إلى نهاية حياتها.

بالتأكيد، سيبقى هناك موارد نفطية ضخمة، وبالتأكيد أنهم اكتشفوا في غضون ذلك أحواضا ضخمة للغاز، وبالتأكيد ما زالت الأرض الإيرانية ومياهها الإقليمية تخفي مفاجآت ممتازة، إنما يجب أخيرا على النظام الإيراني أن يفكر باقتصاديات الطاقة، وأن يجهز البلاد للطاقة البديلة إذا لم يشأ أن يحكم عليها بعد بضعة أجيال بالفقر كما كانت في السابق، وليس لديها سوى العيون لتبكي بها.

والحالة هذه، لابد من التنبيه إلى البون الشاسع، بين تحقق الوعي في استخدام الطاقة وبين وضع هذا الوعي موضع التطبيق، وتحاول الحكومة منذ سنوات نشر ثقافة اقتصاديات الطاقة في المجتمع الإيراني.

وسيكون الإجراء الأكثر بساطة هو في مضاعفة أسعار الوقود مرتين أو ثلاث مرات. وقد حدث في الماضي أن رئيس وزراء الشاه اغتيل في سنوات الخمسينات، تماما بعد قيامه برفع أسعار وقود السيارات. وبقي الحدث

حيا في الذاكرة ليدفع إلى التفكير مليا قبل تكرار التجربة، أما الطريق الثاني فهو تحديث مجموع السيارات التي يتألف القسم الأكبر منها من طراز متخلف، هو البيكان الذي يستهلك بشراهة ليتراته الخمسة عشر أو العشرين في مسافة مئة كيلو مترا فقط، وقد تعاقدوا حديثا مع مصنعي البيجو والرينو للسيارات، ولكنه لا ينتظر ظهور النتائج قبل عشر سنوات.

فكرة أخرى يجب أن تطبق وهي ترشيد استهلاك البنزين المدعوم وبيعه بأسعار أعلى عندما يتجاوز المستهلك حصصا معينة ثابتة، إنهم يتحدثون عن هذا الأمر كثيراً، ولكن المشروع لم يقلع حتى هذا اليوم.

ومن الحقيقي أنه قد تنشأ مشكلات فنية خطيرة كي نأمن عدم التلاعب، ناهيك عن السخط الذي ينتظر المبررات كي يزداد فيما إذا كانت الحصص أقل قليلا عن اللازم، ولابد هنا من التنويه أن الرئيس أحمدي نجاد الضنين ببذل الوعود، قد وعد مع ذلك وخلال حملته الانتخابية بعدم رفع أسعار الوقود، كما أنه لم تتخذ أية إجراءات أمان لفتحات خراطيم المضخات، وما زلنا نرى سائقي السيارات ينتظرون طويلا كل مرة يسعون فيها إلى ملء خزانات سياراتهم، ومن ثم يتركون بابتهاج ما يزيد عن نصف ليتر من هذا السائل غير الثمين بالنسبة لهم، ينسال من خزان السيارة نحو الأرض.

وكذلك يمكننا أن نشاهد وبشكل متكرر وخلال فترات طويلة عمليات تهريب مربحة وهي تصدير البنزين المدعوم إلى البلاد المجاورة الفقيرة بالبترول، وبشكل خاص تركيا وأفغانستان، وفوق ذلك باكستان حيث يباع

الوقود فيها بأضعاف سعره في إيران، ويقولون هنا إن عشرة بالمئة من الوقود المستهلك في إيران يجري تهريبه إلى الدول المجاورة.

وأخيرا، نحن نعرف أن النظام ومنذ فترة طويلة جدا، وعن طريق نظام مضاعفة أسعار صرف العملات الأجنبية، يسمح لمؤسسات معينة يرغب بدعمها أن تستورد معدات أو بضائع ، بأسعار صرف لا يمكن منافستها. ونحن نعلم أيضا أنه يقوم بعمليات دعم مباشر لمشاريع معينة ومقاولين يحصلون على رضاه، مستخدما وارداته البترولية، لقد أصبح معروفا أن البلاد قد نظمت على شكل شبكة واسعة من المتعاملين مع النظام.

وتتجه المشاريع التي تعتمد على مؤسسات دينية، نحو السيطرة على رجال الإدارة وكبار الموظفين، وشبكات الباسدران التي تختلط بالشخصيات الرئيسية وتنفذ إلى جميع النشاطات المربحة في البلاد، والقريبة من الطبقة العليا الدينية أو السياسية التي تتقاطع في كل الاتجاهات من خلال الزيجات المرتبة، وبالتأكيد سينتهي الأمر بكل رجل منهم وكل امرأة وبعد شيء من البلبلة إلى العيش على المن والسلوى. وكما قال لي دبلوماسي صديق: «في إيران، أولئك الذين يقودون البلاد يملكونها أيضاً».

ويتلقى الناس البسطاء، كما رأينا، جزءا أيضاً من هبة السماء هذه. أما الصلة بين الدولة والمواطنين التي نعرفها في البلدان الأكثر تطورا، فنجدها هنا مقلوبة تماما، فعندما يدفع المواطنون ما بين 30 إلى 50% من دخلهم للدولة، فإن معهم بعض الحق في التفكير والقول، فيما إذا كان لدى الحكام حسابات الخاصة. أما في إيران، فالأمر على النقيض تماما،

فعندما تسيل نقود البترول، وبالتأكيد بطريقة غير شرعية، فإنها لا تنسى أحدا، وليس لأحد مصلحة في أن يلاحظ ذلك.

إذاً ينقص المجتمع الإيراني الإسمنت الاجتماعي الذي يؤسس لدور الدولة والمؤسسات الجمعية ويحمل لهذا المجتمع اللحمة على مر الأيام. وبسبب نقص هذا الملاط يبدو للمراقب أن هذا المجتمع عالم ضعيف البنيان، لا يسعى أعضاؤه إلا إلى مصالحهم الخاصة، وحيث يسود بشكل مطلق نوع من الفوضى المحافظة.

ومن المفهوم أنه من السهل جدا الحكم انه سيتشكل أي نوع من السخط العام الناتج مثلا عن ارتفاع هام في أسعار المحروقات أو أن تتضافر مظاهر سخط خاصة متعددة. وبمواجهة هذه الأخطار تصرف النظام بمهارة وذكاء متميزين.

ومن المتفق عليه أنه ليس في إيران أحزاب ولا نقابات تستحق هذا الإسم. فالنقابات هي نقابات صفراء ، والأحزاب السياسية هي مجموعات متواضعة، وهذا هو أحد أسباب فشل الإصلاحيين الذين لم يستطيعوا أبدا، هذا إذا سلمنا أنهم حاولوا في الأصل بشكل جدي، أن يبلوروا من خلال حركة جماهيرية الدعم الشعبي لمحمد خاتمي، وبشكل مماثل لم يتوفر حزب حكومي يستطيع ان يكون معادلا للأحزاب الشيوعية، ولم تكن الأغلبية البرلمانية المحافظة التي امتلكت في ذلك الوقت القوة إلا صيغة مبهمة عن العشائرية، وعن تحالفات طارئة مؤقتة، أما المنظمات والجمعيات غير الحكومية فهي في النهاية هياكل صغيرة جدا إن لم تكن شهود زور لدى الحكومة.

أما النظام الذي كان يدرك عدم شعبيته فقد نظم بالتالي نفسه. ولهذا كان من الصعب تجاهل ذلك فيما لو استمعنا إلى الناس يتحدثون في سيارات النقل العامة، أو في اللقاءات الخاصة التي قد تحدث صدفةً. وقد رأيت وسمعت زبونا في محل لبيع القمصان يعبر لي عن غضبه من «واضعي العمائم» دون أن أسأله عن رأيه، وقد أضاف إلى قوله حركةً جر فيها طرف كفه على رقبته، لا، هذا لا يشير كما اعتقدت في البداية أنه يحلم بقطع رقابهم، بل أراد ببساطة أن يقول إن روح الناس من الضيق بلغت الحلقوم.

أما ما يتعلق بالسلطة، فلكي تحصل على درجة حرارة الرأي العام تلجأ إلى إداة لا مثيل لها وأفضل بكثير من كل استطلاعاتنا العامة، إنها شبكة مؤلفة من ثلاث مئة ألف رجل من الملالي تغطي البلاد بأكملها، بالتأكيد هذه الشبكة غير موجودة في شمال طهران حيث يزدهر «المجتمع المدني»، لكنه يعاني ضعفا شديداً يمنعه من أن يشكل تهديدا للنظام، وفيما عدا ذلك فالشبكة موجودة في كل مكان، في الأحياء الشعبية في العاصمة، وفي كل المدن، وفي كل القرى.

تدور المعلومات داخل هذه الشبكة بشكل دائم وفي كل الاتجاهات. ويتلقى خطباء الجمعة المعينين في كل مدينة وكل قرية من قبل السلطة، تعليمات لتوجيه خطبهم ولنقل ما يسمعون حولهم وما يمكن أن يستنتجوه إلى القمة في قلب النظام. وكان الشاه يعتقد بأن الشعب يحبه لأنهم كانوا يدفعون إليه بفلاحين يقبلون يده، ولكن الغشاوة أعمت بصره حتى وقت متأخر جداً، ولا نجد شيئا من ذلك لدى الملالي الذين يبقون دائما بمنتهى اليقظة.

وفي عام 2000، وبعد وصولي إلى إيران بقليل، توجه ما بين عشرين إلى ثلاثين ألف مدرس إلى طهران، وخلال يومين أو ثلاثة جرت معارك غير منتظرة أمام البرلمان، الذي تلقت واجهته الأمامية سيلا من رشقات الحجارة، ولا بد من القول إن القسم الأكبر منهم لم يتلق رواتبه لشهور عدة، وحتى لو دفعت لهم رواتبهم فليست بالراتب اللائق بمدرس فهو يبدأ بثلاثين يورو في الشهر، وشعرنا أننا أمام جو يسبق التمرد، وبعد ذلك هدأ كل شيء، واختفى الموضوع من صحف اليوم التالي، ثم علمنا أنه جرى تطويق دعوة جديدة وتصعيد للإضراب، لقد فعلت حنفية النفط فعلها.

ولقد رأيت صنبور النفط يعمل مرة أخرى، بعد تلك الفترة بكثير وتقريبا بنفس الطريقة الأولى، وتعلق الأمر هذه المرة بعمال النسيج الذين بدؤوا بإقامة الحواجز على الطرقات، ويبدو أن الأمر تكرر حديثا مع سائقي السيارات الكبيرة في طهران الذين اتجهوا نحو إضراب عنيف، وقد تمت إعادتهم إلى الهدوء بعد بضعة أيام.

أما ثورات الطلبة، فالأمور كانت أكثر تعقيداً، لأن الأمر لم يكن يتعلق بالنقود، ففيما يتعلق بالتمرد الأول عام 1999 ظهر أن النظام تأخر قليلا عن الرد، فقد تحرك دافعا بقوى عاتية لمواجهة الطلبة، ثم عاقب المتمردين بقسوة،ثم أوحى أنه إذا تطلب الأمر فسيلجأ إلى أشد الأساليب قسوة، ثم اكتشف أن خياره هذا كان سيئا وإن كان ضروريا، لذلك كانت مواجهة أعمال التمرد التي تلت أكثر تنظيما فاقتصر في المواجهات على تكليف الشرطة بمهمة التدخل بطريقة أكثر لينا لمعالجة المظاهرات التي كانت تضم بضعة آلاف من الشبان، ثم ليقوم بعد انتهاء الأحداث بفعل كل شيء لإخضاع وسجن وإرهاب وطرد كل المتمردين من الجامعة، أما

خارج الحدود، فقد أعلن الكثيرون أن الجمهورية الإسلامية تتفكك، وكان ذلك تحت تأثير الأمنيات، إنما كان بالإمكان أن تتفكك فعلا لو أن مجتمع طهران المتعاطف مع قضية الطلبة قد خرج إلى شرفات المنازل كي يطلق وبدون مخاطرة تذكر بعض الهتافات العالية، ولكن شيئا من هذا لم يحدث.

في العمق، تنطلق الثورات عندما، يشعر العمال والطلاب والمدنيون و المتقاعدون أو المزارعون جميعا وفي نفس اللحظة أن لديهم دوافع للشعور بالسخط، وقد عرف النظام جيدا هذه الحقيقة لأنه بهذه الطريقة نفسها وصل إلى السلطة، لذلك فقد اهتم جيداً بإطفاء كل شرارة أولى يمكن أن تنتشر في محيطها، وتلتقي بأماكن اشتعال أخرى فتشعل النار في المجتمع كله. وعلينا الاعتراف أنها نجحت بقوة حتى الآن.

كما لعب أيضاً لمصلحة النظام ذلك الخوف الذي عاشه أولئك الذين عاشوا بدايات الثورة ناهيك عن الشبان الأكثر حداثة الذين سمعوا الروايات المرعبة والذين خافوا الدخول في حلقة جديدة وأعمال العنف. «كيف استطاع هذا الجيل ان ينتج مثل هذه الفظائع؟»، «لن نسمح أن يتكرر هذا». هذه هي الأفكار التي كانت تصاغ بدقة في تفكيرهم. وهكذا بدا واضحا أن النظام لن يسقط من تلقاء نفسه وأنه في حال بدئه بالتآكل من الداخل فسيكون جاهزاً عندما يحين الوقت أن يجعل معارضيه يدفعون ثمنا غاليا لسقوطه. و كان ما يردده رجال الباسداران بشكل محبب لمن يريد أن يسمعهم، أكثر قوة من الثورات الطلابية ،من أنهم بعكس المعارضين الذين يواجهونهم، لا يخشون الشهادة، أي الموت في سبيل القضية.

وسيكون ذلك حقيقيا أيضاً، على الأقل إذا صدقنا ذلك، في حال وقوع عدوان خارجي. وقد ذكرني أحدهم وهو في حال من الانفعال بأغنية شعبية انتشرت في نهاية الحرب مع العراق تقول لازمتها: «الآن انتهت الحرب وانقطع طريق الجنة».

وخلال كل هذه الأحداث تستمر الحياة، فهل هذا مؤلم جدا أن تسير الأمور على هذا الشكل؟ لقد قلت يوما لأحدهم إنه لا بد أن يكون تعيسا جدا في هذه البلاد، وبعد لحظة صمت طويلة أجابني بصوت رقيق: «لا يا سيدي، لا تخدع نفسك، في إيران يستطيع المرء أن يعيش، وحتى في هذه الأيام، حياة وادعة بما يكفي... إذا لم يكن لديه طموحات كبيرة».

11

قلب تحت الحجاب

آه، من الحجاب الإسلامي في إيران، إنه الموضوع الأبدي للحوار والتفكير... وكنت أرى بشكل متكرر في احتفالات السفارة، الطريقة التي تتخلص فيها الشابات الإيرانيات منه، كي يكشفن عن ملابسهن ومفاتن الجمال لديهن، كأنهن فراشات تخرج من شرنقاتها، كان يراودني عندها ـ لأعترف بذلك ـ فكرة آثمة، وغير صحيحة سياسيا ألفاً بالمئة، وهي أنه يمكن للمرء أن يكون ضد الحجاب في العالم كله ما عدا إيران، وفي الحقيقة لو حدث ذات صباح جميل أن خرجت جميع الإيرانيات فجأة إلى الشارع سافرات، فلن يعارض المجتمع في ذلك، إنما سيتحول كل رجل إلى ذئب يقف قبالة رجل أو ذئب آخر، وستعم الفوضى، وتتراجع الحضارة في هذا البلد آلاف السنين.

كلا، فليطمئن القارىء، ولتطمئن أكثر القارئة، فأنا لم أورد هذه الفكرة إلا كإشارة إلى خاطىء مسكين قد تقترب فكرته من الآيات الشيطانية التي كان فيها مساس بالرسول (سلام الله عليه وعلى آله وذريته كما يدعو المسلمون).

نعم! إن فرض ارتداء الحجاب والذي جرى في خطوات متتالية صغيرة في بداية الجمهورية الإسلامية، قد شكل رمزاً جيداً بأن الجميع في إيران، وفي الخارج يعبرون عن الطاعة والتراص اللذين رسمهما آية الله الخميني

للإيرانيين، وكان الخميني قد أجاب عندما كان في نوفيل دوشاتو على سؤال لأحد الصحفيين: أي مكان ستهيئون للنساء اللاتي يناضلن الآن هناك في إيران من أجلكم؟. فقال: هذا حقيقي، إنهن يقاتلن كالأسود، وستجعل لهم الثورة الإيرانية المكان الذي يستأهلنه، وكل الفسحة التي حفظها الإسلام لهن.

ولا بد ان نقف عند هذا الكلام بحذر، كان عام 1961 هو الزمن الذي بدأت تتكون فيه قوته وبروزه في المشهد العام، وكان ذلك بسبب معارضته منح المرأة حق التصويت في الانتخابات العامة، وفيما بعد، أثار أسلوبه الثوري غالبية رجال الدين الشيعة وجميع آيات الله الكبار الذين كانوا يميلون إلى الهدوء، ودفعهم إلى الابتعاد عنه. كان الموقف الموحد في تنحية موضوع المرأة جانبا يوجد دوما أرضية مريحة للتوافق بين الجميع.

ولإكمال الصورة من المناسب التذكير أنه قبيل الثورة، كانت أقلية صغيرة من النساء الإيرانيات قد استثنين أنفسهن من ارتداء الحجاب. ولم يكن من الملائم لهن أن يتجولن سافرات في الأحياء الشعبية، والأسواق. وفي مرحلة الاضطرابات التي تفاقمت مع سقوط الشاه تبنى قسم من النساء المعطف الواسع المسمى بالفارسية «الروبوش» ومنديل الرأس «الإشارب» كإشارة لرفض النظام الأمبراطوري، وبهذا النوع من اللباس الموحد المختلف بشكل جذري عن الشادور التقليدي ذي القطعة الواحدة، خرجت النساء في مظاهرات تلك الحقبة.

عندما نشبت الثورة الإسلامية، لم يصدر أي قانون سريع لفرض الحجاب. وقد قدم الحجاب أولا على أنه سلوك طوعي إشارة إلى احترام

كل امرأة محجبة للنظام الجديد، ثم فرض ارتداؤه على الموظفات، بما فيهن القطاع الهام من المدرسات، وقد جرى ذلك في إطار حملات من التخويف قادها الباسيج ضد آخر المتمردات. وقد تداول الناس في حينه أحاديث عن قذف السافرات بالأسيد الحارق أو تثبيت الحجاب قسرا فوق رؤوسهن بالدبابيس الغليظة.

وليست هذه هي المرة الأولى التي تتداخل فيها مسألة الحجاب بالسياسة، وبوحشية أحيانا. فقد أصدر رضا شاه الذي أراد أن يقلد أتاتورك، مرسوما عام 1935 حرم فيه ارتداء الشادور، وحاول تطبيقه بقوة الحراب، وبعد ست سنوات تقريبا، أي في عام 1941، اعتقد الإنكليز والأمريكيون والروس أن الشاه يؤيد الألمان، وخشوا أن يفتح أبواب بلاده لقوات المحور، فدفعوه للتنازل عن العرش والتوجه للمنفى، وأدي رحيله إلى عودة فورية للحجاب الذي كان قرار منعه قد استقبل بعدم الرضى من المجتمع الإيراني، معتبرا المنع ردة دينية، كما أدى في نفس الوقت إلى إغلاق العديد من مدارس الإناث، وبعد رحيل الشاه، أصبحت حرية اختيار الحجاب أو عدمه هي القاعدة الأساسية، واستمر ذلك حتى عام 1979.

وارتداء الحجاب تقليد يغوص في أعماق التقاليد الإيرانية، وربما أكثر من أي بلد إسلامي آخر، ويقال إن الحجاب انطلق من الأراضي الإيرانية بإتجاه البلدان العربية، وليس من البلدان العربية باتجاه إيران، وفي الحقيقة فإنه ليس من المؤكد أن الحجاب كان سائدا في شبه الجزيرة العربية أيام الرسول ﷺ، أما القران فهو وإن دعا للتواضع في اللباس، وستر مفاتن النساء خارج الإطار العائلي، فإنه ليس واضحا جدا في هذا الموضوع.

وبالمقابل فقد ثبت أن الحجاب يعود تاريخيا في إيران وفي بلاد ما بين النهرين إلى أزمان سحيقة قبل الإسلام، وقد أشار الملك البابلي حمورابي وقبل ألفي عام من ولادة المسيح إلى الحجاب في أول قانون مدني وضع في التاريخ، فقد طلب أن ينقش على لوح حجري قرار منع النساء سيئات السمعة من تغطية رؤوسهن، وهذا يعني أنه يمنعهن من التشبه بالنساء الفاضلات، وفي السابق بدا الحجاب وكأنه أداة للتمايز الاجتماعي، وقدر غوبينو بدوره، أنه كان منتشرا في عصر الساسانيين، أي قبل الفتح العربي في الطبقات المختلفة في كل المجتمع الفارسي عن طريق تقليد زوجات الشخصيات الكبيرة ومحظياتهم باعتبارهن شخصيات سامية يجب أن تحتجب عن أنظار العامة، كما كان ينظر إلى المرأة المحجبة على أنها من طبقة متميزة.

واليوم يتعارض الشادور وهو قطعة واحدة تغطي الرأس والجسد معا، مع اللباس الذي ترتديه الفلاحات الإيرانيات اللاتي يرتدين «التنورة» وغطاء الرأس، إذ يستحيل مع الشادور أن يقمن بأي عمل جسدي متواصل، لأنه غير مريح في العمل إلى حد بعيد، فإذا رأينا ونحن نمر بقرية ما أو عبر الحقول امرأة ترتدي الشادور، فإنها بالضرورة زوجة موظف البريد أو المدرس أو المسؤول عن المستوصف، وبالتالي فهي مدنية، أو على الأقل امرأة تأمل أن تصبح من نساء المدن.

وبالعودة إلى السياسة، نقول أيضاً إنه إذا اعتقد الخميني أن باستطاعته إخضاع المرأة الإيرانية بفرض الحجاب عليها، فقد نجح في ذلك بشكل كامل.

ومما لاجدال فيه، ولو بدا ذلك متناقضا، أن الحجاب في البداية لقي قبولا لدى الفتيات الجامعيات، فقد كن ـ زمن الشاه ـ قد منعن من دخول الجامعة محجبات، وقدرت الكثير من العائلات المحافظة، ودفعة واحدة، أنها لا تتصور أن ترسل بناتها إلى هذه الأماكن الضالة ليختلطن دون قيود مع الطلبة الذكور، وعندما جاءت الثورة وفرض الحجاب في الجامعات وجرى في نفس الوقت فصل الطلاب عن الطالبات في أروقة الجامعة لم يعد هناك ما يدعو أي عائلة لحرمان بناتها من التعليم العالي، وفي الحقيقة نجد أن 60% من الطلبة اليوم هم من الإناث. ولحسن الحظ، لقد أصبحت الجامعة، بالحجاب أو بدونه مكانا لممارسة العواطف.

وظهر الفصل من جديد بعد انتهاء الدراسة، وما زال من غير المحتمل اليوم أن تحتل امرأة وظائف ذات مسؤولية كبيرة في الإدارات العامة أو المؤسسات الكبرى التي تسيطر الدولة على قسمها الأعظم، لذلك تلجأ الفتيات إلى ميادين العلوم والفنون والمهن الحرة والتعليم حيث يحصلن باستمرار على مواقع قيادية، ولكن القسم الأكبر منهن، في الحقيقة، ينصرفن إلى البحث عن زوج، لذلك هناك الكثير من الزيجات الفاشلة لدى الفتيات اللاتي تفرض عليهن العائلة زوجا ليس أهلا للفتاة، ولهذا السبب ولأسباب أخرى، ارتفعت معدلات الطلاق إلى درجة كبيرة، وفي كل الأحوال فإن هذا المعدل يصل في المدن الكبرى إلى مستوى معدلات الطلاق في الغرب، وفي طهران نفسها فإن زيجة من كل أربع زيجات تنتهي بالتصدع، وهذا ما نراه منذ عشر سنوات على الأقل.

ولكن الإيرانيات يعرفن أن ساعتهن قادمة، فإذا أرادت إيران أن تصبح دولة عصرية كبرى، فإنها بحاجة وبالضرورة إلى طاقات نسائها.

ونتيجة لما هي عليه اليوم ـ هموم الحياة اليومية، والشك في المستقبل الذي يستدعيه النظام الأخلاقي للنظام ـ ضربت إيران رقما قياسيا، وربما كانت البلد الأول في حجم هجرة العقول، وكذلك في تعاطي المخدرات لدى الشباب، لكن هذه قصة أخرى. إذاً نحن أمام هجرة للعقول الذكور. وطالما أن الأمر يتعلق بمستقبل الأولاد الذكور، تستنزف العائلات إذا لزم الأمر دم قلبها في سبيل متابعة تعليمهن.وإذا استمر «الخروج» بهذا المعدل، يصبح لدى النساء فرصا طيبة لاحتلال المناصب القيادية، وبشكل خاص في الإدارات العامة وبرواتب مغرية كما في أي مكان آخر.

وبالتنبؤ باللحظة التي ستحتل فيها النساء الإيرانيات مكانهن ـ بعد فترة بعيدة، والمفترض أن يهيئه لهن آية الله الطيب ـ فلن نستطيع أن نصف أبدا الفخر الذي أحسسن به جميعا بما فيه النساء في قلب النظام، بمنح جائزة نوبل للسلام إلى شيرين عبادي، وعندما علم أنها ستصل إلى طهران بالطائرة في الساعة العاشرة مساء قام حشد ما بين عشرة إلى خمسة عشر ألف شخص معظمهم من النساء، إنما مع عدد غير قليل من الرجال، بقطع عدة كيلومترات على الأقدام، متوجهين نحو المطار. وقد مرت الكلمات همسا بأن يرتدي المستقبلون والمستقبلات الملابس البيضاء إشارة للحرية، ولمرحلة جديدة، وللتخلي عن سواد الشادور.

وهناك، في المطار لم يكن ثمة تردد للشرطة في تفريق الحشد بوحشية، تماما كما تفعل ـ ولا فخر ـ كلما حلّ يوم المرأة العالمي، حيث تحاول بضع مئات من المتظاهرات أن يتجمعن في إحدى حدائق طهران، وكانت الشرطة سعيدة هذه المرة أن تبقي حتى اللحظة الأخيرة الشك حول الطريق الذي ستسلكه شيرين عبادي تاركة بذلك موجات من الأشخاص يجرون في كل

اتجاه في المطار، ومن المفهوم أن يفض أي استقبال صاخب للبطلة القادمة. والذي حدث أن أحدا، أو تقريبا لا أحد، سمع خطابها عند وصولها، وكان على النظام أن يعمل أكثر من ذلك لمحو نشوة الفرح للتقدير الذي نالته.

ومن الحقيقي أن اختيار المحلفين في أوسلو وقع على امرأة استثنائية. وهي امرأة صغيرة الحجم، منتصبة القامة، ولها جسد مكتنز العضلات، لها وجه مدور ومصقول، وعين ضاحكة وابتسامة عريضة، ولعل الصفة التي تناسبها أنها امرأة «لا تقبل الخضوع». وقد رفضت هذه المرأة التي تحمل قضية معينة، وبعد حصولها على الجائزة، وبإصرار كل العروض التي قدمت لها لدخول عالم السياسة العريض لأنها تكرس نفسها لقضية معينة، وتتابع الآن كما في السابق عددا من القضايا الإنسانية الهامة جداً والتي تتعلق بأطفال الشوارع، وبضحايا الألغام في المناطق الحدودية مع العراق. كما تتابع على الأخص العمل مع مجموعة من زملائها المحامين، للدفاع عن زبائنها من أصحاب القضايا المبدئية و مناصرة قضاياهم: الحقوق السياسية، حق الدفاع، حقوق الإنسان (بما فيها حقوق المرأة). وعندما حسمت أمرها واختارت طريقها، لم تغادره أبدا وأرست أسس ملفات صلبة في الميدان القضائي.

ربما كان شعارها «القانون، كل القانون، ولا شيء غير القانون»، وإذا كان القانون سيئا فيجب مناقشته بشكل علني بهدف تبديله، إنما بالطرق الدستورية، ودون أن نضع النظام موضع المساءلة، لا شيء يفت من عضدها، لاشيء يخيفها. وقد حرك النظام ملاحقات ضدها بسبب بعض نشاطاتها وبدوافع غامضة. و قضت بعض الفترات في السجن، فكانت أقل الناس تأثراً بذلك، وقد تبددت كل هذه المضايقات بشكل يدعو للشفقة على مرتكبيها.

يجب أن نرى ما هي الشروط التي تعمل بها.، فمكتبها موجود في نفس البناء الذي تقع فيه شقتها ويضم غرفتين أو ثلاث غرف في نصف قبو. في إحدى الغرفتين طاولة اجتماعات وبعض المقاعد التي لا طعم لها، كما نجد فيها علبة بسكويت وطقم فناجين شاي صغير للزوار حيث تقوم هي شخصيا بواجب تقديم الضيافة لهم، تضم الغرفة الثانية مكتبا أكل الدهر عليه وشرب، وجهاز هاتف قديم، وجهاز كمبيوتر من طراز التسعينات، في هذه الغرفة تجهز المرافعات والدعاوى التي تسبب المصاعب للنظام، وهي تعرف أنها تعيش تهديدا دائما بالتصفية الجسدية، بإشارة يعطيها مجنون أو بيد مدفوعة من جهة ما، ولكنها مع ذلك أقل الناس تأثراً بمثل هذا التهديد.

ولأن هذه السيدة ليست قاضية، ولا عاملة في الميدان الثقافي، ولا في ميدان العلوم وليست فنانة، بل هي امرأة عادية، لذلك عليها أن تقبل المكان الذي حجزه لها النظام، ولكنها هل تقبل بذلك؟.

في البداية قاتلت المرأة من أجل التعبير العام عن نسويتها، وسبب هذا فإن ما يعتبر في أماكن أخرى من أمور الموضة الصغيرة يأخذ في إيران بعدا في المراوغة السياسية.

إنها مراوغة سياسية أن قامت الفتيات الشابات بتقصير معطف الروبوش إلى خط الركبة، حيث شوهد هذا حتى في الأحياء الشعبية، مع أن معايير النظام أن يصل الطول حتى منتصف ربلة الساق، إنها مراوغة سياسية، أن ترتدي الفتيات «البيمبو الإسلامي» يتجولن به في شوارع شمال طهران: حذاء عالي الكعب يسبب الدوار، بنطال من الجينز مع قميص ذي طيات،

روبوش قصير جدا بثلاث قصات مختلفة، وقميص وردي فاتح، أو أخضر بلون النعناع، أو أزرق بلون الخزامى يضيق في الأسفل كأنه من قماش السترتش فيقولب الجسد ويبالغ في إبراز الردفين، و غطاء رأس صغير يسمح بانفلات خصل كبيرة من الشعر الداكن اللون، و«ماكياج» متعدد الألوان مرسوم بشفافية، وأظافر مطلية بعناية في القدمين كما في اليدين، ونظارات شمسية، وقطعة لبان «تطقطق» في الفم توحي بالتحدي.

إنها مراوغة سياسية، أن ترتدي الفتيات الشابات واقيات الوجه الواسعة للاعبات الجولف أو التنس وخاصة في الصيف، وقد استخدمتها المتنزهات من مختلف الأعمار وحتى داخل المدينة، ومن الملاحظ أنه جرى اختيارها كي لا تتلاءم مع الحجاب الأسود لتؤكد أن الحجاب يعود إلى عصر مضى، كما تعطيه شكلا ساخرا بشكل غامض.

إنها مراوغة سياسية، أيضاً وأخيراً، هذا الانقياد الكاذب للنساء المرتبطات بالحياة العامة واللاتي يتمتعن بثقة شخصية بالنفس، إذ تستخدم الكثير منهن هذا الإشارب أو حتى الحجاب المتدلي على الكتفين، في المكاتب وفي الجامعة لأنه سيبقى في مكانه طول النهار كي يرسم بدقة استدارة الوجه دون أن ينتهك معايير الحشمة الإسلامية، ونادرا ما يكشفن طرفا من شعرهن، كما أن الجسد لا يترك مجالا لمعرفة تفاصيله إلا إذا أطلقنا المجال للخيال، أما الأجزاء الظاهرة للعيان، أعني بها الوجه واليدين، ثم القدمين، تمضي هذه النسوة وقتا طويلا في فصل الصيف خاصة، للعناية بها بشكل خاص في جلسات تدليك بعد أن خنقها الحجاب طويلا. الأظافر، الحاجبان، الرموش، الجبهة، الأنف، الوجنتان، خط الشفتين، ووضاءة البشرة، كل ذلك يصبح موضوعا يحتل المركز الأول في

التفكير، وإذا لزم الأمر لا مانع من إجراء عملية تجميل، كل ذلك لجعل كل هذه التفاصيل عملا فنيا.

إذاً لم يمت الشبق في إيران، والشكر لله!. وحتى أنه كما تقول الفحوصات الدماغية أصبح أكثر تأججا باعتباره أصبح يواجه ضغطا أكبر، لقد ظهر من شهادات لشبان جمعها علماء اجتماع ـ وهذا متوقع ـ أن الشادور نفسه قد انتهى به الأمر ليصبح أداة إثارة وتغذية للمخيلة، ومثلما تفعل عندنا ـ في الغرب ـ حاملات الجوارب النسائية (الجرتيير). إنه مجرد استبدال للأشياء.

وما يدعو للكثير من الاستغراب، أن لعبة القط والفأر التي تلعبها النساء مع المعايير الإسلامية ما زالت تمارس في عهد الرئيس أحمدي نجاد، ويتردد المحافظون المتطرفون بشكل ظاهر، رغم سيل البيانات التي تصدر للتأكيد على القيم، أن يصلوا ـ عكس ما يريدون ـ إلى إحداث شروخ هامة في المجتمع، وبشكل خاص مع الأجيال الشابة، لكن الجمهورية الإسلامية لا تستسلم.

هناك أولا، التأهيل والتكييف اللذين يمارسا في دور الحضانة، والمدارس الابتدائية، ويذهب الذكور والإناث إلى مدارس منفصلة، وفي كل مكان تلتزم الفتيات باللباس الموحد، وهو غالبا بلون أزرق سماوي ويتألف من غطاء الرأس المتدلي على الكتفين والقميص المدرسي، ولا يجادل أحد في أن الحجاب لا يفرض في الإسلام إلا على الفتاة البالغة، وحتى في أشد التفاسير محافظة، ليس قبل سن التاسعة، أما ما هو محدث فيسمح بظهور رسوم شائعة جدا في الملصقات الإعلانية أو السجاد رخيص الثمن

تمثل فتيات صغيرات من طراز «لوليتا» مع شحنة جنسية تثير الانتباه بشكل واضح.

هناك بالمقابل إعلانات ولوحات هدفها إثارة حماس المرأة الإسلامية، يقدم الحجاب فيها على أنه شرف للمرأة أو حتى أنه «الصدفة التي تخفي في قلبها اللؤلؤة». لكن أحدا لا يلتفت لهذه الإعلانات، وهناك بشكل خاص الدعوة العقائدية التي يبثها التلفزيون والأفلام السينمائية.

يعرض في إيران القليل من الأفلام الأجنبية، وخلال زمن طويل كان هناك القليل جدا من الأفلام القصيرة، لأن السينما كانت قد أغلقت في بداية الثورة ولم تعد لفتح أبوابها إلا بعد انتهاء الحرب الطويلة مع العراق. وهناك بعض الأفلام الأمريكية تحديدا تستورد اليوم من قبل مؤسسة حكومية احتكارية و يحذف منها عادة كل مشهد فيه الكثير من الإيحاء، وهي الأفلام الوحيدة التي يمكن فيها مشاهدة نساء يمتطين الحصان. أما مالكو صالات السينما التي لم يدخل عليها تجديدات منذ سنوات السبعينات، فإنهم يائسون من قدرتهم على ملء صالاتهم، لأن الإنتاج السينمائي الإيراني لا يستجيب لأذواق الناس، والآن، على الأقل، يبقى كل شيء تحت سيطرة الجمهورية الإسلامية.

والأفلام الإيرانية التي تعرض على الجمهور الإيراني هي غير الأفلام التي تتألق في المهرجانات الأوروبية، لقد مضت سنوات طويلة قبل أن يسمح بعرض فيلم بعنوان كياروستامي لمدة تقل عن أسبوع، وفي صالة سينما صغيرة جداً، مثل هذه الأفلام لا يراها إلا حلقة صغيرة من الأصدقاء يدعون بالهاتف إلى الشقق الخاصة، وبواسطة جهاز DVD، وبشكل عام

يمكن أن يتسامح النظام مع فيلم يعرض لكاتب ما عندما يتجنب هذا الفيلم القضايا الساخنة في المجتمع المدني، ويقتصر وبحذر على قصص عن قبائل جبلية معزولة، أو قبائل تعيش في الصحراء، أو ما هو أفضل من ذلك، قصص عن أفغانستان تتضمن مشاهد معينة.

بالتأكيد، من الممكن أن ترى بين الفينة والأخرى فيلما هو في آن واحد شعبي ومن مستوى جيد، ففيلم «الحرباء» في المجال الفكاهي يروي قصة ملاّ مزيف، ومع ذلك أوقف عرضه بعد شهر واحد بسبب نجاحه الكبير جداً، وفيلم «أنا طارانه، في الخامسة عشر من عمري»، يروي المحن التي تمر بها فتاة صبية وحيدة في العالم، وكذلك فيلم «سجن النساء» الذي يتعرض للواقع المأساوي للسجون في إيران .

ولكن، كأمر واقع، فإن الأفلام الإيرانية التي تعرض على الجمهور، هي إما أفلام تهريج مفرط بائسة فنيا، أو أفلام يتكرر فيها نفس السيناريو ونفس المنظور الفكري: رجل حائر بين فتاتين، أحداهما متحررة قليلا (في الواقع قليلا جداً) وطائشة (في الواقع بالكاد هي طائشة)، والأخرى رمز للنساء اللواتي يتمتعن بالشرف الرفيع. خمّن من الامرأتين بعد مئة دقيقة من العرض يمضيه المشاهد وهو يتابع تنقل نظر الرجل الحائر بين غنج ودلال الفتاتين، وهما محجبتان بالطبع ... وينتهي الأمر بالاختيار...نعم أصبح الدرس واضحا، فمن الأفضل للفتاة في الإسلام لتحصل على زوج أن تكون عذراء عاقلة من أن تكون عذراء طائشة.

هذه الأفلام يراها الناس بالطبع في التلفاز، وحتى في رحلات الطيران الدولية على الخطوط الإيرانية حيث تعرض عليك، حسب الحالة، أول

أو آخر نفحات النظام الإسلامي، وفي نفس الدرب، ووفق الهدف المكرس لترويض النفوس، يقدم التلفاز الوطني المسلسلات، وقد تحقق حديثا نصر كبير للنساء، فقد أنتج التلفاز الذي يسيطر عليه المحافظون مسلسلا و بدأ ببثه، تتحدث لحمة قصته عن المصاعب الداخلية لأسرة دفعت بالزوجة أن تطلب من زوجها أن يضم إلى بيته زوجة ثانية، فلم تحتمل نساء إيران الفكرة فعارضن المسلسل واحتججن بقوة وحتى أمام أزواجهن المحافظين، ونجحن في إيقاف المسلسل قبل انتهاء عرضه.

ويبقى تعدد الزوجات موضوعا مثيرا للتوتر في المجتمع الإيراني، ليس في شكله التقليدي حيث تسكن زوجتان أو أكثر معا في بيت واحد، فربما بدأ هذا الوضع بالاختفاء إلا لدى بعض العشائر أو بعض الملالي، إنما في ممارسة زواج المتعة، أي الزواج المؤقت، وهو غير معروف في العالم السني، ولكنه شائع جداً في العالم الشيعي وخاصة في إيران.

وتوخيا للاختصار، فإن بضعة كلمات غير مفهومة يغمغم بها الملاّ تتيح للمرء أن يتزوج من سيدة ما لفترة محدودة قد لا تمتد أكثر من بضع ساعات وقد تطول بضع سنين، مقابل تعويض محدد يدفع في نهاية العقد. وإذا ما جرى كل ذلك حسب الأصول فإن تفاصيل الزواج تثبت على الورق. ويستخدم العقد المكتوب لمواجهة شرطة الآداب، إذ يتيح للمتعاقدين الحلول في أحد الفنادق.

هذه الممارسة التي ولدت قديما باعتبارها جزءا من تنظيم الحروب والحج، انتشرت كثيراً في المجتمعات التقليدية،وفي البازار، وفي أوساط التجار، وعند الملالي أنفسهم، ولكن هذا لا يعني أن هذا النمط من الزواج

قد اختفى في المجتمع الحديث، حيث يستخدم «وبدافع الشفقة» لتغطية عبث أرباب العمل مع سكرتيراتهم.

يترافع المدافعون عن هذا الأسلوب مشيرين إلى فائدة تفريغ مقنون للغرائز الجنسية التي لا يمكن كبتها، كما أنه يقدم للمرأة عددا من الضمانات، فهي في وضع أفضل من وضع العاهرة أو العشيقة، وفيه أيضا حماية للأطفال الذين قد يولدون عرضا، بالإضافة إلى ضمانات مالية أخرى، وهناك أخيرا فرصة «للزواج تحت التجربة». ويؤكد المدافعون عن هذا النظام أن الغرب يعيش وضعا شاذا ويسيء إلى نفسه بسبب سيطرة أخلاق الغاب على العلاقات الجنسية فيه، وهكذا تأخذ المناقشات هذا المنحى الإيجابي لتذكرنا بالمناقشات التي تجري في مجتمعاتنا (الغرب) حول قبول بيوت الدعارة أو رفضها.

وفي الحقيقة، تهدف هذه الممارسة وبالضرورة إلى جعل الدعارة مشروعة قانونا، ولحماية المسلمين المتدينين من عذاب الضمير فيما لو لجؤوا إلى الدعارة المحرمة، ويصبح أنصار هذا الأسلوب بلا صوت عندما نقول لهم بأن هذا قد يكون مقبولا عند الضرورة بشرط أن يعطى هذا الحق نفسه للنساء المتزوجات، فلماذا لا يمكنهن، بعد كل شيء، من الحصول على نفس الحقوق التي يتمتع بها أزواجهن لقضاء «وقت طيب».

وأخيراً، فإن الصراع بين النساء والنظام لا يجري إلا فوق هذه الميادين الصامتة، فإلى جانب الغزو الرقيق للنفوس، هناك الشرطة، وهناك القضاء اللذان يتعاملان بقسوة مع المرأة في إيران.

لقد تحدثوا كثيرا عن عمليات الرجم في إيران، وفي الحقيقة جرت هناك عمليتا رجم بحكم قضائي عام 2001، خلال فترة إعادة انتخاب الرئيس خاتمي، وكأن القضاء ـ باعتباره مستقلا عن السلطة التنفيذية ـ أراد أن يشير إلى عزمه أن لا يترك نفسه يشعر بالرعب من النصر الذي حققه الإصلاحيون، وتتعلق هذه الأحكام بامرأتين بائستين، اتهمت الأولى بالزنى والثانية بممارسة الدعارة بعد ثماني سنوات قضتها في السجن لظهورها في فيلم إباحي قصير، وقد ثارت أوروبا غضبا وقامت بمسيرات وحصلت على انتزاع تأجيل غير محدد لتنفيذ الحكم والذي يبدو أنه سيبقى ساري المفعول إلى ما لا نهاية، وإذا كان هناك أحكام بالرجم هذه الأيام في إيران فستكون صادرة عن قضاء في قرية ما في إقليم بعيد.

تطرح الصعوبة في استئصال أحكام الرجم أكثر من تساؤل إذ لا يمكن التحقق من شرعيتها بالرجوع إلى القران، فالرسول الذي كان متقدما جدا على المجتمع في عصره لم يعاقب الزنى والفسق إلا بالجلد، وكذلك يحتاج الأمر إلى أربعة شهود لإثبات ارتكاب الخطيئة، والخميني نفسه والذي كان شفوقا بالنساء منع بوضوح الرجم، ولكن هذه العقوبة ظهرت من جديد بعد موته، وكما يقول المسلمون غالبا والمسلمون المتنورون دائما إن الأمر يتعلق بممارسات تعود إلى جذور العصور البطريركية (الأبوية) والإقطاعية لمجتمعات المنطقة، ولم تشاهد أبدا في تطبيقات الدين الصحيحة.

ولدى النظام الإيراني فسحة أيضا لإعدام النساء شنقا لارتكابهن جرائم قتل لأسباب عاطفية، أو حتى بتهمة الاتجار بالمخدرات، وتلتقط صور هذه الإعدامات على عجل، وتنشر أحيانا خارج البلاد لتسحق القلب والروح. وقد انفعل العالم عام 2005 لعملية إعدام في قرية صغيرة على

حدود بحر قزوين، كانت ضحيتها فتاة صغيرة في السابعة عشرة أو الثامنة عشره من عمرها، تعاني القليل من الاضطراب النفسي، والقليل من الهوس بجسدها الشاب والتي ارتكبت جريمة «بشعة» عندما خلعت الشادور أمام قاض شرعي فساوى بين تصرفها والفجور، وأربك هذا الحكم النظام الذي حاول التخلص من مسؤوليته بحجة استقلال القضاء المحلي، والواقع أن أحكام الإعدام يجب أن تصدق في إيران من المحكمة العليا، وقد صدقت المحكمة على هذا الحكم، وروت الأخبار التي شاعت عن هذه القضية أن الملاّ في الإقليم لم يكتف بحضور تنفيذ الحكم فقط كما يجري غالبا في إيران، بل تولى أيضاً مهمة القاضي والنائب العام وكاتب المحكمة، فوضع بنفسه الحبل حول عنق الفتاة المدانة.

قائمة طويلة من المعاقبين بالموت مجهولي الاسم أو تقريبا، ثم ينسون بسرعة. ومع ذلك يجب المرء أن يحتفظ بذكراهم بانتظار يوم يمكن فيه أن تقام لهم الشواهد، وإذا حدث ذلك فيجب أن نتذكر أن نضع في أعلى الشاهدة الأسماء المتألقة لعشر سيدات من الطائفة البهائية واللاتي تتراوح أعمارهن ما بين السابعة عشرة والخمسين عاما، اعتقلن ثم حكم عليهن بالموت عام 1983 في شيراز لأنهن نظمن دورات تثقيف سرية لأطفال طائفتهن، وقد شنقن الواحدة تلو الأخرى حسب تسلسل أعمارهن بدءا من الأكبر نزولا نحو الأصغر تحت أنظار نساء نجون من الموت، لقد ذهبن جميعا إلى آخر طريق الشهادة رافضات أن ينكرن إيمانهن أو يعبرن عن ندمهن.

12

أتصنع القنبلة؟

في ملامسة المسألة المشتعلة المتعلقة بالملف النووي الإيراني، الذي تابعته شخصيا طيلة إقامتي في طهران، وما زلت أتابعه بالطبع حتى اليوم، فإنني أشعر بعاطفة مؤلمة لكوني أمين على حقيقة، أو على الأقل على عناصر من حقيقة لم أصل إلى قرار في إشراك الآخرين بها، عاطفة مؤلمة بقدر تشددي حيال هذا الموضوع.

عندما أقول ذلك فلأني أضع كلامي أيضاً في إطار نسبي، إذ ليس من الضرورة أن أعاني الأهوال التي عاناها غاليليو لأنه أمتلك عقلا، ولا أن أكون شهيد «القديسة الحقيقة»، لذلك سأحاول أن أكون واضحا وألا أملّ من ذلك.

سأنهي هذه المقدمة الصغيرة بتوضيح ضروري وهو أنني لا أملك أي سر خاص، أو بالأحرى إن الأسرار الصغيرة القليلة التي يمكن أن اقترب منها بحذر لا تلقي بثقلها على هذا التحليل، إن كل ما يهم فيما سيأتي سواء كان أفعالا أو تبريرات يستند إلى معلومات قديمة قيلت علنا في زمن أو آخر.

وسأورد حول هذا الموضوع المعقد بعض الحقائق البسيطة:

- هل حاول الإيرانيون الحصول على القنبلة؟ الجواب: نعم.

- هل نجحوا في ذلك؟ الجواب لا.

- هل ما زالوا في عام 2006 بعيدين عن امتلاكها؟ الجواب: نعم.

- هل هم في نقطة أقرب إلى إلغاء الفكرة أم في نقطة أقرب إلى امتلاكها؟ الجواب: إنهم أقرب إلى امتلاكها بقدر السنوات التي توقفوا فيها استعدادا للإقلاع.

- كم من الوقت يلزمهم للحصول على قنبلتهم الأولى؟ الجواب: تقريبا أربع سنوات في الظروف المثالية إذا ما كان قرارهم جازما تماما، وامتلكوا القدرة تماما، وكانوا فعالين تماما.

- وفيما إذا لم تتحقق هذه الشروط المثالية؟ الجواب: سوف ستصبح السنين الأربعة سبعة أو ثمانية.

- مع كل الافتراضات، هل نستطيع أن نستشف اللحظة التي يصبح فيها الإيرانيون قريبين جدا من هدفهم؟ الجواب: نعم إن وسائل التحقق الفعلي تسمح بذلك.

- ولكن وقبل كل شيء، هل هم مصممون بشكل دائم على امتلاك القنبلة؟ الجواب بالتأكيد، على الأقل إن لم يكونوا جميعا كذلك، فإن قسما منهم يرغب بذلك.

- هل يعرفون معنى محاولتهم امتلاك القنبلة؟ الجواب: أقول عن طريق الاستنتاج، يعرفون تقريبا.

- هؤلاء الناس هل لديهم برنامج سري؟ الجواب:ربما، وحتى من المحتمل، ولكن وإن كان هذا البرنامج موجودا، لا يمكن أن يكون

متقدما كثيراً عن البرنامج المعلن، وهذا البرنامج السري، إن كان له مضمون خاص، فهو في مراحله الأولى، وفي كل الأحوال سيحتاج هذا البرنامج إلى السنوات الأربعة التي ذكرتها كي يتمكن من إنتاج القنبلة إذا ما بدأ العمل به فعلا.

- ما الطريق الأفضل إذاً لقطع طريق القنبلة على الإيرانيين؟ الجواب: رغم كل شيء، يبقى أسلوب اللين هو الأفضل.

- هل يعني هذا أنه يجب الإقلاع عن طريق العنف؟ الجواب: بالتأكيد لا، إنما يجب ألا يستخدم العنف إلا كوسيلة أخيرة، وإلا إذا كان وصول إيران إلى القنبلة قد اقترب فعلا. لأنه سيكون ضارا جداً، في الحقيقة، للمنطقة والعالم بأسره.

وكي أساند قليلا الأفكار التي أوردتها أعلاه، وقبل الدخول في جوهر الموضوع، يلزمنا بعض الصبر كي نفهم بشكل جيد ما تتصف به الأعمال النووية من معقولية وما تحمله من منافع، أعني أن الآليات المستخدمة يمكن أن تقود إلى نهاية سلمية تماما كإنتاج الكهرباء، كما يمكن أن تتحول إلى إنتاج القنبلة، وهناك آليتان تسمحان بالضرورة بهذا الاستخدام المزدوج: التخصيب والعزل.

لنتشجع، ونعود قليلا إلى مقاعد الدراسة.

تعني عبارة تخصيب اليورانيوم الطبيعي القيام بعملية فصل بين نوعين متميزين من اليورانيوم نجدهما ممتزجين بشكل وثيق في الطبيعة، ولا يمثل اليورانيوم المفيد القابل للاحتراق في الحالة الطبيعية سوى 0.7% من مجموع اليورانيوم، ويضخ اليورانيوم الغازي في أجهزة الدفع المركزي

وهي عبارة عن أجهزة غسيل ضخمة تدور بسرعة كبير ة جدا، أي نحو ألف دورة في الثانية الواحدة، وقد توصلوا إلى رفع نسبة اليورانيوم القابل للاحتراق والمشار إليه أعلاه إلى 3.5%. ويكفي هذا المستوى من التخصيب لصنع قوة احتراق قادرة على تسخين النواة المركزية للذرة وبالتالي إنتاج بخار الماء الذي سيؤدي بدوره إلى تشغيل توربين لإنتاج الكهرباء. ويلزم للوصول إلى ذلك إلى عشرات الآلاف من أجهزة الطرد المركزي. وحتى هذه النقطة يبقى كل شيء في إطار الاستخدام السلمي.

ولكن لا شيء يمنع ميكانيكيا من جعل أجهزة الدفع المركزي تدور بسرعة تتجاوز عتبة 3.5%. ونستطيع أيضا بقليل من الصبر أن نصل إلى أعلى مستويات التخصيب، وعندما يتجاوز اليورانيوم المفيد عتبة الـ 90%، نستطيع بواسطة عشرين إلى خمسة وعشرين كيلو غرام أن نصنع قنبلة، وكانت القنبلة الأولى التي ألقاها الأمريكيون فوق هيروشيما هي من هذا النوع، ونستطيع بألفين إلى ثلاثة آلاف جهاز دفع مركزي من أكثر الموديلات بساطة أن ننتج خلال عام ما يكفي من اليورانيوم المخصب بدرجة عالية واللازم لصنع قنبلة.

أما ما يتعلق بالعزل، فهو عملية تنقية لمواد مستخرجة من قلب المفاعل الذري، ففي هذا القلب الذي يعمل بالتالي اليورانيوم تؤدي التفاعلات النووية التي تجري هناك إلى إنتاج مواد جديدة، وعندما تستخرج هذه المواد من داخل المفاعل، تعرض إلى سلسلة من العمليات الكيمائية تسمح بعزل معدن جديد غير معروف في الطبيعة هو البلوتونيوم، ويمكن استخدام هذا المعدن بمزجه باليورانيوم كوقود لقلب المفاعل، كما يمكن أن يعاد إنتاجه لأغراض صناعية، وبالتالي لغايات سلمية، ولكننا نستطيع بسبعة كيلو غرامات منه إنتاج قنبلة من طراز قنبلة ناغازاكي.

وقد وضعت تقنية تخصيب اليورانيوم عن طريق أجهزة الدفع المركزي موضع الاستخدام في سنوات السبعينات، وأصبح إنتاج الوقود أكثر بساطة. ومن السهل جدا إخفاء عمليات إنتاج القنبلة، وهذا ما يسعى الإيرانيون إلى تطويرها، و يسعى الآخرون لمنعهم من ذلك، وهناك آليات كافية للوصول إلى ذلك، ولكن هناك أيضا عائقا تفرضه السياسة الدولية.

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية أدرك الأمريكيون ودفعة واحدة حجم المنافع الاقتصادية والمخاطر الاستراتيجية المترافقة مع انتشار التكنولوجيا النووية. فلجؤوا إلى بناء نظام دولي يهدف إلى السيطرة على الوضع.

في البداية، وفي عام 1957 أنشأت الوكالة الدولية للطاقة الذرية ومقرها فيينا، ويكلف مفتشوها بالتحقق من أن الأجهزة والمواد النووية تنتقل عبر العالم من أجل الاحتياجات الصناعية، وأن الأبحاث النووية لا تستخدم لإنتاج القنابل.

وفي عام 1968 وضعت معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية والتي تنازلت عن بعض الأمور كي لا يضيع كل شيء، فميزت بين نوعين من البلاد، فمن جهة هناك البلدان التي امتلكت سابقا القنبلة الذرية وهي في الحقيقة الأعضاء الخمسة الدائمون في مجلس الأمن، طالما أنه ليس بالإمكان إجبارها على التخلي عما تملكه فعلا، فسمح لها بالاحتفاظ بما تملك. أما القسم الآخر فهم الذين تعهدوا ألا يمتلكونها أبدا، مع الاعتراف الكامل بحقهم في تطوير الاستخدامات السلمية للذرة، وقد انضمت جميع البلدان تقريبا لهذه المعاهدة ما عداً بعض الاستثناءات القليلة جداً، وبشكل خاص الهند وباكستان وإسرائيل. أما إيران فقد انضمت إليها منذ البداية.

ولابد من عودة إلى الخلف كي نفهم ما جرى بعد ذلك. لننضم الآن إلى الشاه في السبعينات.

في تلك الفترة فكر الشاه في آن واحد بتطوير بلاده، وفي الوقت الذي ستبدأ فيه مصادر الطاقة بالنضوب، فأطلق برنامجا ضخما لإنتاج الطاقة النووية للأغراض السلمية بالطبع.ونقول هذا جادين، وسنعود إليه فيما بعد، وتطلب الأمر أن تبنى أربعة مفاعلات بسرعة، وعشرون مفاعلا على المدى الطويل، ستنتج في مجموعها عشرين ألف ميجاوات من الكهرباء. وانحنت ثلاث «جنيات» لتحنو على هذا المهد: الولايات المتحدة، ألمانيا، وفرنسا.وقد طلبت المفاعلات الأولى من فرنسا دون انتظار عروض الدولتين الأخريين وشرع فورا في أعمال البناء، وقد تعهدت فرنسا بالإضافة إلى ذلك، بتزويد إيران باليورانيوم الخفيف اللازم لتشغيل المفاعلات من مصنع التخصيب الجديد: اوروديف.

وعرفنا من الثقاة المحيطين بالموضوع أن الشاه الذي صدق على معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية منذ عام 1970، قد فكر مع ذلك بمسألة الاستفادة من تطوير برنامج سري يسمح له بامتلاك القنبلة، وبعد موازنة جيدة، استنكف عن ذلك بعد نقاش عميق لأن مثل هذه المحاولة سوف تجلب له من المتاعب ما يفوق الفوائد، وسيسبب له تشويشا في العلاقات مع الولايات المتحدة التي يحتاجها بشدة، كما أن الأزمة التي يمكن أن تنشب مع الاتحاد السوفييتي أيضاً والذي يتقاسم مع إيران حدودا طويلة مشتركة لن تكون مطمئنة، ولن تخرج إيران من هذا التشويش ومن هذه الأزمة منتصرة أبدا. إذاً، لا برنامج عسكري سري، وإنما التركيز على الفوائد التي يمكن أن تتحقق من البرنامج السلمي الذي يسمح بامتلاك

القدرة النووية مع الضمانات تجاه كل الاحتمالات. وإذا أصبح ذلك ذات يوم ضروريا فيكون قد كسب وقتا ثمينا يقتضيه البرنامج السلمي كي يضع موضع التنفيذ برنامجا عسكريا.

ووقعت الثورة الإسلامية حتى قبل أن ينجز المفاعل الذري الأول الذي طلب من ألمانيا بناؤه، وبالنسبة للملالي كان كل شيء قام به الشاه هو سيء من الدرجة الأولى، وهكذا أوقف البرنامج النووي على الفور وبعثرت الأجهزة الثمينة التي كانت قد بدأت تصل إلى إيران، أما القسم الأكبر من العلماء والتكنولوجيين فقد غادروا البلاد برضاهم الشخصي أو للتخلص من الاضطهاد الذي تعرضوا له، وهي خسارة لا تعوض لما سيحدث فيما بعد، وكي يضع الأمور في نصابها أعلن الخميني أن القنبلة الذرية «محرمة» في الإسلام.

في أيلول 1980، بدأ جيش صدام بغزو إيران، مدعوما من العالم أجمع ما عدا الصين وإسرائيل، وبعد عشر سنوات دمر الطيران الإسرائيلي المفاعل النووي للأبحاث المثير للجدل والذي بنته له فرنسا، لكن تدمير المفاعل لم يحبط سيد بغداد، بل استثاره ـ كما يقولون اليوم ـ فانطلق بشكل جنوني في طريق أسلحة الدمار الشامل: لا نووية فقط، إنما كيميائية وبيولوجية أيضاً، وفي كل الأحوال كان برنامج النوعين الأخيرين بالكاد سريا، فقد تعاملت ألمانيا وأمريكا بتراخ مع مصانعهما التي كانت تصدر المواد اللازمة لهذا البرنامج.

وكل هذا لم يكن بمقدور الإيرانيين تجاهله لأن جنودهم وحتى المدنيين القريبين من الحدود ـ كالأكراد ـ تحولوا إلى ضحايا بعشرات الألوف

للهجمات الكيماوية بالغاز، ولم تجر في الغرب إدانات لهذه الهجمات إلا من رؤوس الشفاه، ونستطيع بسهولة أن نستنتج أنه في تلك الحقبة، حقبة الحرب، قرر الإيرانيون إطلاق برامجهم الخاصة كي لا يؤاخذوا ذات يوم على التقصير، لذلك كان من الطبيعي جدا أن يعهد بهذه البرامج ومنها البرنامج النووي إلى العسكريين، وبتحديد أكثر إلى الحرس الثوري، هذا الجهاز من النخبة الذي أسسه النظام والوحيد في عالم الدفاع الذي يجب أن يتمتع بالثقة.

لكن الباسدران، ومهما كان حماسه الثوري لا يملك القدرة إطلاقا في الميدان العلمي النووي، أما مصادر الاختصاصيين، كما رأينا، فقد تلاشت واقعيا، لذلك بقيت مشاريع الأبحاث التي أطلقت في مرحلتها البدائية. وأمام ضخامة المهمة حاولوا أيضاً أن يحصلوا من بين أنقاض الإمبراطورية السوفيتية على قنابل وصواريخ قد تكون ما زالت على الرفوف، لكنهم لم ينجحوا في ذلك، وإن كانوا قد حصلوا على الكثير خلسة، وباختصار وجدوا أنفسهم بعد عشر سنوات من العمل، وبكثير من الأموال التي أنفقت و ذهب بعضها دون شك إلى جيوبهم، وجدوا أنفسهم في نقطة البداية تقريبا.

وشعر النظام بالقلق من هذه النتائج المؤسفة، ورأت النواة الباقية من الاختصاصيين المدنيين والتي كانت تعمل حول مفاعل صغير جدا للأبحاث من أصل أمريكي، وداخل عدة مختبرات مرافقة، رأت أنها اللحظة المناسبة ليستعيدوا فيها دورهم، كانت الحرب مع العراق قد انتهت منذ سنوات عديدة، وكان صدام يعاني من حرب الخليج التي أدت إلى تدمير برامجه لأسلحة الدمار الشامل، وهكذا حصل المدنيون على موافقة السلطات بأن يعود الشأن النووي إلى سلطتهم، أي إلى الهيئة الإيرانية للطاقة النووية.

وكان لا بد من إعطاء الكثير من العزاء للحرس الثوري الذي لا يستطيع أن يتحمل الإهانة، وكان ذلك عن طريق العهدة إليه بمسؤولية برنامج الصواريخ البالاستية، وما زال حتى اليوم ممسكا به ويقوم بتنفيذه بمساعدة خاصة من كوريا الشمالية لإنتاج الصاروخ شهاب 3، وهو صاروخ بالاستي يبلغ مداه النظري ألف وثلاث مئة كيلو مترا، وإذا زود هذا الصاروخ ذات يوم برأس نووي فسيشكل تهديدا خطيرا لكل دول المنطقة، وبالتالي خطراً كبيراً على إسرائيل، إذ إن إيران ومنذ الدعوات التي كان الخميني يطلقها، تهدد إسرائيل بمحوها عن الخارطة، ونحن اليوم مع كثير من الاعتقاد أو قليل منه حسب المناسبات أمام دعوة مثيرة للقلق من جانب أحمدي نجاد.

ونستطيع أن نقول من خلال معرفتنا بالأخلاق البيروقراطية وبشكل خاص لدى الحرس الثوري الذي لا يفعل إلا ما في رأسه، إنه لم يحول إلى المدنيين كل الجهاز البشري وكل الأجهزة وكل المواد والمعطيات التي استطاع تجميعها خلال عشر سنوات، وربما وبسبب المرارة التي كان يشعر بها احتفظ برجال ومعدات ومواد تنتهي بشكل محدد إلى استخدامات عسكرية: أساليب صنع المحرك الانفجاري، ومخططات الرأس النووي، فإذا كان هناك اليوم برنامج نووي سري، فيجب أن نبحث عن أصوله هناك.

والهيئة الإيرانية للطاقة الذرية، وبعبارة أخرى المدنيون، انطلقت من جانبها إلى العمل، وقد استأنفت عملها منطلقة تقريبا من برنامج الشاه للتطوير النووي وحصلت على خبراء روس قاموا بإنجاز المفاعل النووي في بوشهر الذي تخلى عنه الألمان ورفضوا استئناف العمل في بنائه، وأما ما يتعلق بتخصيب اليورانيوم فقد حصلت الهيئة، في هذا الظرف أو ذاك،

على الخطط وأجهزة الطرد المركزي التي اشتراها الحرس الثوري من شبكة الدكتور عبد القادر خان أب القنبلة الباكستانية. وقد قام هذا الرجل الذي لم يكن سعيدا في العمل لدى الحكومة الباكستانية، بتضخيم خبرته و تأسيس مشروعه التجاري الصغير.

أما ما يتعلق بالوقود المركزي لمفاعل بوشهر، فسوف يقوم الروس بتزويده به. ولكن الإيرانيين لا يريدون أن يقعوا تحت رحمة مزود واحد بينما سيمتلكون مستقبلا عدة مفاعلات نووية، إنهم يتذكرون الطريقة التي تراجع فيها الفرنسيون عن التزاماتهم التي قدموها للشاه في احتفاظ لإيران بجزء من اليورانيوم المخصب الخفيف الذي ينتجه مصنعهم في إيروديف، وقد رفض الغربيون مدفوعين من الأمريكيين القيام بأي تعاون نووي مع إيران، ليس فقط ـ ولا حاجة لذكر ذلك ـ في الميادين المعقولة، بل حتى في الميادين التكنولوجية التي لا تسبب أي خطر في تحويلها إلى غايات عسكرية.

لذلك قرر الإيرانيون أن يطلقوا برنامجهم الخاص لتصنيع اليورانيوم المخصب، منطلقين دون شك من نفس التعليل الذي اعتمده الشاه في السابق: لنضع هذه التكنولوجيا في الاستخدام للأغراض المدنية، وإذا احتجنا ذات يوم، في حالة ظهور ابن لصدام في المنطقة، سيكون عندها قد حل الوقت لتحويل استخدام هذه التكنولوجيا إلى أغراض عسكرية. وهكذا انهمكوا في بناء مصنع أجهزة الطرد المركزي في نانتز، أقيم في عرض الصحراء، ويمكن مشاهدته عبر صور القمر الاصطناعي وكأنه أنف في وسط وجه، كما يمكن مشاهدته أثناء المرور بالطريق الوطني الذي يستخدمه السياح، بما فيهم السياح الأجانب، وبما فيهم الدبلوماسيون، والذي لا يضم إطلاقا أي مبنى سري.

عندما اتسعت الضجة في المجتمع الدولي عام 2002 اشتدت الانفعالات في الوقت الذي كان فيه المصنع بعيدا عن البدء بالعمل أو حتى أن يكون قد زود بعدد هام من أجهزة الطرد المركزي الجاهزة للعمل. وقامت حكومة خاتمي التي بدا عليها الارتباك واضحا من هذا المصدر الجديد لتعقيد العلاقات مع العالم الخارجي بالاحتجاج بشدة مدافعة عن صفاء مقاصدها ومذكرة بأنها موقعة على معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية، ولكنها أكدت في نفس الوقت عزمها على متابعة إنجاح برنامجها النووي السلمي كما هو مخطط له، وقد قبلت إيران، تأكيدا لالتزاماتها الدولية ـ وهذا متفق عليه ـ كل عمليات التفتيش التي تقوم بها المنظمة الدولية في فيينا.

وسارع مفتشو المنظمة بالتوجه إلى إيران، وحشروا أنوفهم في مصنع نانتز، وكذلك في كل مواقع الأبحاث النووية التي أشير عليهم بها، وقد وجدوا في الواقع الكثير من علامات برامج سرية طورت بنجاح ضئيل كالذي عرفوه في الثمانينات والتسعينات، كما وجدوا في مصنع متواضع في ضاحية طهران آثار نشاطات للدفع المركزي على مستوى ضعيف جدا والذي حاول الإيرانيون في البداية إخفاءه.

لم يعلن شيء من هذا في الهيئة الدولية للطاقة الذرية، وأصبحت إيران مذنبة لمخالفتها التزاماتها، وبدؤوا يتحدثون ـ وأمريكا في المقدمة ـ عن دفع الملف إلى مجلس الأمن، وأمام إجراء متوقع كهذا وبالمقارنة مع صغر وقدم المخالفات المرتكبة، حسب رأي إيران، والتي تواجه التأنيب بسببها، فقد بدأت إيران تحتد.

وهكذا وبمبادرة من فرنسا، وبشكل خاص من دومينيك دو فيلبان الذي كان في حينه وزيرا للشؤون الخارجية، قامت ثلاث دول أوروبية هي ألمانيا وبريطانيا وفرنسا نفسها بدعوة إيران في صيف عام 2003 إلى التخلي عن تطوير تكنولوجيا الطرد المركزي وتجهيز تكنولوجيا العزل وهي الطريق الثاني إلى القنبلة، وعرضت بالمقابل أن تتوقف في الوقت الحالي عن إحالتها إلى مجلس الأمن، كما عرضت عليها الاعتراف بحقها في التطوير النووي السلمي، وبإطلاق برنامج تعاون تكنولوجي معها في ميادين معينة، مع تقديم ضمانات لأمنها.

وأبدت إيران اهتماما بالعرض، عدا ما يتعلق بالنقطة الحاسمة وهي التخلي عن التخصيب، وقرر دومينيك دوفيلبان قيادة زميليه في رحلة توضيحية إلى إيران في تشرين الأول 2003، وهناك تمكنوا من انتزاع موافقة إيران، على الأقل بتعليق فعالياتها في ميدان الطرد المركزي، وقبول نظام تفتيش مدعوم من الوكالة الدولية في فيينا، مقابل الدخول في مفاوضات مع البلدان الأوروبية الثلاثة حول الثغرات التي فتحت سابقا المتعلقة بالتعاون والضمانات، ويتخلى الأوروبيون على الأقل مؤقتا عن فكرة مثول إيران أمام مجلس الأمن .

وبعد ما يقرب من سنتين من الصعود والهبوط، انتهت المفاوضات إلى الفشل، واعتبر اتفاق تشرين الأول 2003 من قبل الطرفين أنه في حكم المنتهي، وفي بداية 2006، استأنف الإيرانيون أنشطة التخصيب، على الأقل على مستوى ضيق، وأقنع الأوروبيون أعضاء مجلس الحكومات في الوكالة الدولية للطاقة الذرية بتكليف مجلس الأمن بالموضوع الإيراني.

وهكذا أغلقت المرحلة الأولى من الحوار النزاع بين إيران والغرب، هل هناك فرصة ما لإيجاد مخرج لانقطاع الحوار؟ في الحقيقة لا، على الأقل لثلاثة أسباب.

السبب الأول: هو سبب ظرفي طارىء، فنبض المشروع كان مصدره شخص واحد، وهو دومينيك دوفيلبان وحده، فمزاج الوزير الفرنسي بضرورة العمل للتغلب على المحتوم، جرّ خلفه الوزيرين الألماني والبريطاني، وانقلب لدى الإيرانيين إلى ثقة بالنفس لا تقاوم، وعندما حل في طهران مع زميليه لم يتمكن من التغلب على أي عقبة، وقد أتيح لي أن أحضر مشهدا غريبا مخالفا للمألوف: ثلاثة وزراء خارجية يفاوضون على قدم المساواة لما يقرب من ساعتين مخاطبهم الإيراني على نص اتفاق من المفترض أن يعلن على الملأ،عبر حشد من الصحفيين كان ينتظر في غرفة أخرى .

وترك دو فيلبان منصبه وتجدد الحوار حول الملف مع ميشيل بارنييه، وهو وزير يتمتع بصفات عظيمة، لكنه لم يكن مشاركا في موضوع الملف منذ بدايته، ولم يتمكن من لعب دور القائد، بعد ذلك وصل فيليب دوست ـ بلازي، الذي جرب ـ شأنه شأن الآخرين ـ حظه كمفاوض، وهكذا تناقص وزن فرنسا في المفاوضات، وانتقل الملف إلى أيدي موظفين يعرفون جيدا مسائل التناسل، ولكنهم يعرفون إيران بشكل سيّء وليس لديهم الرغبة في التعرف إليها، لقد عاشوا عند كل منعطف في وهم أن إيران سوف تتنازل في النهاية عن موقفها إذا ما مارسوا قليلا من الضغوط عليها، وكانوا جميعا غارقين في منطق الذراع الحديدية، وهو منطق يصعب دائما التخلص منه.

حتى الناس الذين يعرفون إيران قليلا ، يعرفون أنها لن تتنازل، وبالعكس سيدفعها المزيد من الضغط للشعور بأنها ضحية مؤامرة غربية تهدف إلى سد طريق الحداثة عليها، وهكذا تحول موضوع التمكن من عمليات الطرد المركزي إلى قضية وطنية كبرى.

ويقودنا هذا إلى السبب الثاني للفشل. وهو أن الأوروبيين لم يعدلوا أبدا من هدفهم الأساسي، وهو دفع إيران نحو تعليق غير محدد المدة لعمليات التخصيب، وبمعنى آخر أن تتخلى إيران نهائيا عن ذلك، إذما إن يقبل التعليق مرة، فلن يكون لدى أي جانب أوروبي بعده، أي استعجال لاستئناف الإيرانيين التخصيب، و في تشرين الأول و في خضم المحادثات مع الوزراء الأوروبيين الثلاثة قال المحاور الإيراني للصحافة علنا بأن هذا التعليق لن يستمر أكثر من مدة المفاوضات التي يعتقد أنها لن تطول أكثر من عام واحد بدءا من الآن، لكن المحادثات استمرت في الحقيقة أكثر من سنتين.

أما السبب الثالث فهو أن الأوروبيين لم يوفقوا أبدا في المفاوضات التي كانوا يديرونها ، في الحصول من واشنطن على قرار بتخفيف هام للعقوبات الاقتصادية على إيران، وكان الوعد بتخفيف حدة الموقف الأمريكي خطوة أولى لا يمكن تجاوزها لعرض مشجع فعلا للتعاون في الميادين التكنولوجية الرئيسية: الذرة، الملاحة الجوية، البترول....إلخ.

في الواقع، تطلب الأمر أن يتعكّر مزاج الروس والصينيين للحصول أخيرا على ثغرة في الموقف الأمريكي، والأسف الذي يتملكنا في هذه النقطة من القصة هو أن المرحلة الأولى من المفاوضات قد امتدت فترة طويلة، وأن انقلاب موقف الولايات المتحدة قد وصل في فترة متأخرة جداً بعد رحيل المعتدلين أي الرئيس خاتمي وفريقه المفاوض.

لنستعد معا شريط الأحداث. في مارس 2006، أنذر مجلس الأمن الذي أمسك بالملف الإيراني وبترجيح صوت رئيسه، إيران بوضع نهاية لأعمال التخصيب التي تقوم بها، ولكن إيران أصمّت آذانها عن ذلك، وعندما حاولت الولايات المتحدة تؤيدها الدول الأوروبية الثلاثة الحصول على قرار من مجلس الأمن وبصيغة تحرك طيف العقوبات، قاومت الصين وروسيا القرار باعتبارهما تملكان حق الفيتو، فإيران بالنسبة لهما شريك هام ، ولم تكونا مقتنعتين أن الملف يستحق هذا الاستعجال، ولم ترغبا في المخاطرة بتمرير سيناريو على الطريقة العراقية.

وهنا حصلت مفاجأة! فأمام الطريق المسدود، قرر بوش الإصغاء إلى هؤلاء وأولئك، وعرض أيضاً إمكانية التفاوض مع الإيرانيين فيما إذا قرروا فعليا ومن جديد تعليق كل عمليات التخصيب، وسرّب معلقون رسميون أنه في يوم ما، بعيد بالتأكيد، سيكون بإمكان الإيرانيين إن أرادوا استعادة ثقة المجتمع الدولي أن يديروا على الأقل عددا صغيرا من أجهزة الطرد المركزي، وهكذا انقلب «التابو ـ التحريم» وانتهى «الحق صفر» في استخدام الدفع المركزي، وفتحت مرحلة جديدة من المفاوضات والتي ما زال مبكرا القول فيما إذا كانت ستفضي إلى شيء أم لا.

هناك اليوم سؤالان مطروحان: أولا نحن لا نعرف حتى الآن وبشكل دقيق ما إذا كان الإيرانيون راغبين في الإمساك باليد الأمريكية التي امتدت اليهم، ولو حتى برؤوس الأصابع، أم أنهم يريدون فعلا أن يأتي الأمريكيون؟ ثم أين يريد الإيرانيون أنفسهم أن يصلوا؟ ومع أن اللعبة ما زالت مستمرة ـ صيف 2006 ـ فإننا سنجرب الوصول إلى بعض الاستنتاجات.

أين يريد الأمريكيون أن يبلغوا؟ في البداية كانوا معادين للمبادرة الأوروبية طالما أنها أخرت ـ بعيونهم ـ الفرصة لإدانة إيران من قبل مجلس الأمن، وبعد ذلك أيدوها بكثير من الرخاوة وبشرط ألا يتخلى الأوروبيون عن مطالبتهم بتخلي إيران نهائيا عن عمليات الطرد المركزي، لقد خشوا على الأخص من أن يتحول فشل المبادرة الأوروبية إلى نجاح لإيران، بل إلى دعم لنظام تتمنى له إدارة بوش بحرارة السقوط كي تعطى أمريكا مجددا الدور الوحيد الذي تحكمه مقاييسها في علاقتها مع البلد الرئيسي في المنطقة: البلد الأول بلا منازع.

ومع ذلك، وافقت الإدارة الأمريكية في النهاية على الإمكانية التي منعتها طويلا عن الأوروبيين، لإعطاء إيران الحق في تطوير قدرتها على التخصيب، ولم يكن الموقف الأمريكي الجديد ناتجا عن مكيافيلية، ولكن وبسبب الضرورة الملحة عن براجماتية.

كان عليها في البداية الاعتراف أن الأمر انتهى بإيران إلى حصولها فعليا على أسس التكنولوجيا النووية طالما أنها توصلت إلى تشغيل، ولو لوقت محدود، بضع عشرات من أجهزة الطرد المركزي، كما أنه من المستحيل محو ما تحقق لها من معارف في هذا الميدان.

واستنتجت بعد ذلك أن النظام الإيراني هو أقل هشاشة مما اعتقدت فيما يتعلق بالأهداف، وقد قادتها الصعوبات المستعصية على الحل التي تواجهها في العراق إلى النظر إليه عن قرب أكثر، لكن رئيس الأركان الذي أصدرت إليه التعليمات بتحضير بعض الخطط لهجوم محتمل لم يفته أن يتحدث عن الصعوبات والشكوك حول عمل كهذا، ثم أكمل الرفض الصيني والروسي للإدانة بالبقية.

ويكمن في صلب العرض الأمريكي أمل أن ينتهي الأمر بإيران برفضه، فيضعها بلا جدال في الموقف السيىء فتتيح فرصة جديدة للمجتمع الدولي لإدانتها، وعلى كل حال فقد قدم العرض بشيء من اللامبالاة، لكنه عاش على الرغم من ذلك حياته الخاصة، وتوفر لإيران فرصة للخلاص من خطوة سيئة كانت ستفرض عليها بسبب أخطاء الأمريكيين الخاصة.

وفي الحقيقة، وكي تكتمل الصورة يجب أن نتذكر أيضا، بعد أن سلّطنا الضوء على أخطاء الغرب، أن الجمهورية الإسلامية ارتكبت أيضاً الكثير من الأخطاء قبل انتخاب أحمدي نجاد وبعد انتخابه، فالاعتراف رغما عنها بالمخالفات التي ارتكبتها أمر لا جدال فيه، والتباطؤ في الاستجابة لكل مطالب مفتشي الوكالة الدولية للطاقة الذرية رغم أنها مطالب مبنية على حرفية النصوص، وأحيانا أبعد من ذلك، ثم إساءة استعمال الحق وبشكل عدواني في الحصول على كل التكنولوجيات النووية التي وفرتها لها عضويتها في معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية متجاهلة أن هذه الحقوق ترتب بالمقابل وبمنتهى الوضوح واجبات استخفت بها على مدى عشرين عاماً.

وكذلك الاعتقاد برعونة كبيرة أن قضية كهذه يمكن أن يجري التفاوض عليها وفق الأساليب التقليدية للبازار، وكذلك رفع حرارة الرأي العام إلى حدها الأقصى حول موضوع العدوان على إيران، لكي يقال بعد ذلك إن هذا الارتفاع يمنعها من تقديم أي تنازل، لقد جرى كل ذلك دون أن تحسب حساب الأقوال الحمقاء التي صدرت عن الرئيس أحمدي نجاد عن إسرائيل وعن المحرقة، والتي شكلت بكل معنى الكلمة فضيحة دولية، كما أرخت بثقلها على المنطقة كلها.

كما أن أي خبير نووي معروف من أقرانه لا يتصور أن تتمكن إيران حتى لو حطمت غدا كل أشرعة القانون الدولي، وعبأت أفضل مواردها، من تجميع أول محرك نووي بدائي قبل أربع أو خمس سنوات، وبعد هذه النتيجة الأولى ستحتاج إيران لصنع قنبلة وصاروخ قادرين على ضرب عدو جيد التسليح حتى الموت، إلى سنوات طويلة، ولن يستطيع أي شيء إخفاء هذا النشاط على المدى الطويل، وستجعل إيران من نفسها هدفا لأولئك الذين يريدون أن يصوبوا عليه، ونفكر هنا بشكل خاص بإسرائيل.

ولا تغيب هذه الحقائق عن أذهان الإيرانيين، ولذلك فلا شيء يوحي بأنهم أخذوا القرار المحفوف بالمخاطر بتحويل بلادهم إلى ترسانة نووية. كما أن اكتشاف الانتهاكات التي ارتكبت في السابق والمرتبطة ببرنامج سري أوحى بشكل خاص بالواقع المتعثر لهذا البرنامج، وأخيرا، فيما يتعلق بالحاضر والمستقبل، لم يثبت رغم العديد من الزيارات المكثفة لمفتشي الوكالة الدولية للطاقة الذرية وتقارير أجهزة الاستخبارات المختلفة،أن إيران تتحرك في طريق سري باتجاه القنبلة. هناك إذاً الآن، وأكثر من أي وقت مضى مادة للتفاوض عليها.

ومع ذلك، هل من المحتمل أن نصل إلى اتفاق مع شخصيات بعيدة جدا عنا، ومعادية أيضاً للغرب مثل خامنئي قائد الثورة وأحمدي نجاد رئيس الجمهورية؟ ومع أناس كقادة الحرس الثوري؟ وهل من الممكن بعد كل شيء أن نمنحهم الحد الأدنى من الثقة.

أن نمنحهم الثقة أمر غير مؤكد، وليس هناك أي سبب يجعلنا نمنحهم ثقتنا، فهم لا يمنحوننا بالمقابل ثقتهم، وحتى لو منحناهم الثقة فمن

يستطيع أن يقول لنا على ماذا سيجمع خلفائهم؟ من الأفضل أن نثبت هنا ومن حيث المبدأ أن كائنا من يكون في إيران سيبقى هناك أناس يرغبون في الحصول على القنبلة.

ولكن إن لم نستطع التغلب على النوايا، فإن بإمكاننا منع الحصول على القدرات. وطالما أن إيران تعلن اليوم عن أهدافها السلمية، فيجب أن نأخذ كلمتها مأخذ الجد، ونعقد معها ومع الهيئة الدولية للطاقة الذرية صاحبة الاختصاص اتفاقا قابلا للحياة وصالحا للتحقق، اتفاق يسير بمحاذاة نشاطاتها ويستطيع، بإجراءات معقولة، تنبيهنا إلى أي انتهاك جديد قد ترتكبه إيران.

لنقل أخيرا وبالكلام العريض، إننا لا نستطيع أن نضع حدودا للتفاوض استنادا إلى اتفاقيات نعقدها الدول القوية فيما بينها، فوضع القواعد الدولية لمنع انتشار الأسلحة النووية يجب ألا يقتصر فقط على الدول التي لا تعاني من مشكلات في هذا الميدان، بينما يفرض على الدول الأخرى أن تتنحى سلفا، ولأي سبب كان، وتقبل بشكل خاص بقواعد تحد من قدراتها.

ونحن نعرف كيف تبدأ الأزمات ولكننا لا نعرف أبدا كيف تنتهي، وقد بدأت كل الأزمات التي تعذر السيطرة عليها فيما بعد باعتبارها أزمات يظن كل طرف فيها أن باستطاعته السيطرة عليها، ويجب النظر، على الدوام، إلى أن استخدام القوة من طرف ما يمكن مواجهته بالقوة من الطرف الآخر، وعلمتنا خبرة القرون الماضية وحتى خبرة أيامنا الحاضرة في الشرق الأوسط، أن هذا الأسلوب هو وليد النظام الجديد أو الفوضى الجديدة ، ولكنه لم يصل بهم إلى ما يهدفون إليه.

يجب إذاً التفاوض مع إيران، حتى اللحظة التي تستنفد فيها كل الطرق المؤدية للاتفاق الذي يحد من انتشار التهديد القريب لوصول إيران إلى القنبلة. ونحن ما زلنا بعيدين عن ذلك، وهنا تبرز مسألة الرفاه الاجتماعي في إيران وهو أمر لا يمكن أن نكون غير مبالين به. وهناك التوازن في المنطقة وهو توازن بمنتهى الهشاشة، وهناك أخيرا مسألة عدم انتشار الأسلحة النووية والتي لا نستطيع أن نلعب بها «الطرة والنقش» خوفا من الانتقال إلى أوضاع صعبة من صراعات جديدة نورثها الأجيال القادمة.

ونختتم هذا الفصل بإيراد مثل أيراني يقول: إذا كنت تستطيع أن تفك العقدة بأصابعك، فلماذا تستخدم أسنانك؟.

الخاتمة

وأين فرنسا من كل هذا؟ لم نتكلم في هذا الكتاب عن ذلك، وسيكون من الضار أن ننهي الكتاب دون أن نقول كلمة بهذا الخصوص.

والسبب بسيط. ففرنسا تحتل مكانا خاصا في قلوب الإيرانيين، لأنها بعكس القوى الكبرى الأوروبية الأخرى وبعكس الولايات المتحدة، لم تضع نفسها يوما موضع من يعامل إيران بلغة القوة، وكان ينظر إليها دوما من خلال أفضل أيامها بأنها أم الفنون وأم القانون.

الأبطال الفرنسيون في إيران هم أطباء ومهندسون وخبراء عسكريون وفنانون رسامون ومشرعون وعلماء آثار، وحتى عندما يكونون تجارا مثل شاروان الجواهري في بلاط الشاه، لقد روى هذا التاجر رحلاته إلى بلاد فارس في اثني عشر مجلدا، قرأتها كل أوروبا بحماس كبير، وخلقت في فرنسا شغفا بالغا ببلاد فارس والشعب الفارسي. هذا الطراز من الأبطال هو الذي خلق فيما بعد وبنجاح كبير كتاب «الرسائل الفارسية».

ومنذ ذلك الحين لم تنقطع الصداقة مع فرنسا أبدا، وإذا كانت إيران تتطلع منذ وقت طويل نحو فرنسا، فإن فرنسا بالمقابل تنظر إلى إيران باهتمام وفضول كبيرين، وابتداء من القرن السابع عشر لم يتعامل أي من البلدين بلا مبالاة مع البلد الآخر.

وفي القرن التاسع عشر عندما باع الملوك القاجاريون المفلسون بالمزاد مصادر الثروات في البلاد، عرضت عليهم بريطانيا احتكار التبغ، ومن ثم

حصلت على أول امتياز بترولي، وقبض البلجيكيون على زمام الاحتكار الجمركي، وقدمت فرنسا مشروع احتكار التنقيب عن الآثار، وقد جرى نقاش برلماني حول الموضوع وكان حادا، ولكنه أيضا كان جادا وجيداً، وقد انتهى بالموافقة على تمويل المشروع، ويرتبط هذا الأمر في نفوس الإيرانيين و باستمرار بمجد آثار سوس التي أثارت في الواقع إعجاب العالم كله.

بالتأكيد هناك بعض الخروقات في هذه اللوحة التي تتسم بالحب الكامل.

أول هذه الخروقات قديم وصغير بلا شك، وهو ما قام به نابليون، فهذا الرجل وبعد أن تعلق لفترة ببلاد فارس ضمن فكرة ضمها الى إمبراطوريته ليقوم بعد ذلك بفتح الهند، تخلى عن كل أصدقائه في حينه عندما وقع مع القيصر معاهدة تلسيت، ولم يحتمل القيصر إزعاجات الفرنسيين في محيط القوقاز الذي يعتبره محمية له، وفي بلاط الشاه كانت خيبة الأمل محرقة، ولكنهم وقد أغراهم بلا شك أن يكونوا موضع اهتمام أبطال ذلك الزمان فقد غفر الفرس للفرنسيين فعلتهم.

اختراق آخر صغير أيضاً، ارتكبه هذه المرة الآثاريون منذ مئة سنة نتيجة التنقيب عن صرح حمورابي الذي وجد في سوس. ويتعلق الأمر بقطعة ذات أهمية تاريخية فريدة، يجب ان يقنعنا الموقف الأخلاقي بتركها في إيران لا نقلها إلى فرنسا. بالتأكيد قام الأخميديون بسرقة البابليين، ولكن هل نقلدهم في جريمتهم؟. وفي المتحف الوطني في طهران تعرض نسخة من هذه القطعة من الجص مشوهة قليلا حيث تتناثر عليها لطخ بيضاء كتعبير عن احتجاج صامت ضد عملية النهب الفرنسي. ولنذكر أيضاً، كي يغفروا لنا، أن الآثاريين الفرنسيين استنوا لأنفسهم قانونا ألا يحملوا معهم خارج إيران ولو كسرة صغيرة من إناء فخاري.

أما ثالث هذه الخروق والذي نأمل أن يكون الأخير فقد جرى على صعيد آخر تماما، يتعلق الأمر بدعم فرنسا لصدام حسين في حربه ضد إيران، و كان دعما نشطا وفعالا، دعما هاما، وحتى دعما حاسما. وإذا تجاوزنا في حديثنا، الذخائر وطائرات الميراج، فإن الإعلان في ربيع 1983 عن مشروع لتجهيز العراق بخمس طائرات من طراز سوبرإتندار نظرت إليه إيران وكأنه إعلان حرب، وقد وصلت الطائرات في تشرين الأول مع صواريخ إكزوست، وسرت الإشاعة في طهران أن طيارين فرنسيين يقودونها، وهدفت العملية فعلا إلى القيام بمهمات غامضة ضد المواقع النفطية وناقلات النفط، ولكي نمسك بالصدمة التي تلقاها الجيل الذي عاشها يجب أن نعرف وبعد عشرين عاما من الحادث أن كلمة سوبراتندار ما زالت تخرج من أفواه الإيرانيين بلا تلعثم ولا تشويه.

بالتأكيد، في تلك الفترة لم يخلد الإيرانيون للراحة، ففي تموز 1980 كان هناك الاعتداء الفاجع الذي ارتكبه أنيس النقاش ضد شهبور بختيار، والذي أمر به بشكل واضح آية الله الخميني. وأدى الاعتداء إلى وفاة جار للسياسي الإيراني وإصابة شرطي فرنسي بالشلل التام مدى الحياة. ثم تحققت فتوى القائد أخيرا بعد أحد عشر عاما مستخفا تماما بحقوق الناس. وبعد أسبوعين من تسليم طائرات السوبرإتندار وقع انفجار ضخم في 23 تشرين الأول 1983 فجرا فدمر مبنى في بيروت وأدى إلى مقتل ثمانية وخمسين جنديا من الوحدة الفرنسية التي اتخذت موقعها باسم دراكار، وبالكاد استطاع الحرس الثوري أن يخفوا رضاهم عن الحادث، والحقيقة أنهم كانوا هم المحرضون عليه، شأنه في ذلك شأن الهجوم الانتحاري الذي وقع قبل بضع دقائق من الحادث المذكور بواسطة

شاحنة محشوة بالمتفجرات انفجرت قرب المطار وقتلت ما يزيد عن مئتين وخمسين أمريكيا من جنود المارينز، وكان الجنود الفرنسيون والأمريكيون قد أتوا إلى لبنان في إطار القوة متعددة الجنسيات لحفظ الأمن والمسؤولة عن استعادة السلم الأهلي في لبنان.

هذه الأفعال بعيدة عن الاعتراف بالجميل لفرنسا و الذي جرى التعبير عنه في بداية الثورة، ولاستقبالها لشهور أربعة ـ وعلى ترابها الإمام الخميني. في تلك الفترة ـ وضعت أكوام من باقات الزهور أمام السفارة الفرنسية ومكاتب شركة طيران الأيرفرانس في طهران، كما أطلق اسم نوفيل دوشاتو على الشارع الذي تقع فيه السفارة. في عام 1983 أصبحت المظاهرات عدائية، وأطلقت قنبلتان على مدخل البعثة الاقتصادية الفرنسية كما انفجرت قنابل أخرى أمام مكاتب الأيرفرانس، وجرت محاولتان لاغتيال دبلوماسيينا الذين تركوا منذ عام 1981 دون سفير بسبب جمود العلاقات الدبلوماسية بين البلدين.

واستمر الوضع بالتدهور، ولم يعد الإيرانيون يحتملون مراعاة فرنسا لمنظمة مجاهدي خلق اليسارية المتطرفة والمعارضة للنظام، والتي أقامت مقرها الرئيسي في اوفرسورواز، كما استقبل مسؤولوها في وزارة الخارجية، بينما كانت تتابع زرع الرعب في طهران، ودخلنا حينها في فترة مضطربة من اختطاف الرهائن في بيروت إلى تفجير القنابل في شوارع باريس ومخازنها الكبرى، وبلغت تلك الحقبة أوجها بعملية غرودجي وحرب السفارات التي أشعلها حصار السفارة الإيرانية في فرنسا.

ثم بدأت عملية الانحسار والتي اتسمت بتحرير الفرنسيين المختطفين الثلاثة قي أيار 1983 في لبنان، واستئناف العلاقات الدبلوماسية في تموز

من ذلك العام، وقد أفرج عن أنيس نقاش بداعي حسن السلوك بعد أن أمضى نصف الحكم الصادر بحقه وهو عشرون عاما، وهو إجراء يسمح به القانون الفرنسي، وبعد عام من ذلك، وبعد عشر سنوات من الخلاف جرى تسوية كل القضايا المتنازع عليها والمتعلقة بمصنع أيروديف والتي أثيرت بسبب رفض الفرنسيين تنفيذ التزاماتهم بتزويد إيران باليورانيوم المخصب الخفيف.

و يجب ألا نسمح مرة أخرى بتعكير العلاقات الفرنسية الإيرانية وقد عادت المياه إلى مجاريها تقريبا، ومهما كانت الاضطرابات القائمة والتي يمكن أن تقوم، وما هو غريب فعلا أن الخدوش بسبب الموضوع العراقي لم تصل إلى عمق الحب والإعجاب اللذين يكنّهما الإيرانيون لفرنسا، وحتى أكثر أنصار النظام تعصبا يرون أن فرنسا ليست كبقية البلدان الغربية فهناك في إيران، كما في مناطق أخرى في العالم من ينتظر منا الكثير، أكثر حتى مما نستطيع تقديمه، ولكن مع عدم قدرتنا على تلبية كل شيء، فلنقل على الأقل إن هذا المتوقع منا يفرض علينا واجبات عدة أهمها أن نصغي، وأن نتفهم، وأحيانا أن نتعلم كيف ننسى وأن نقول باستمرار الحقيقة.